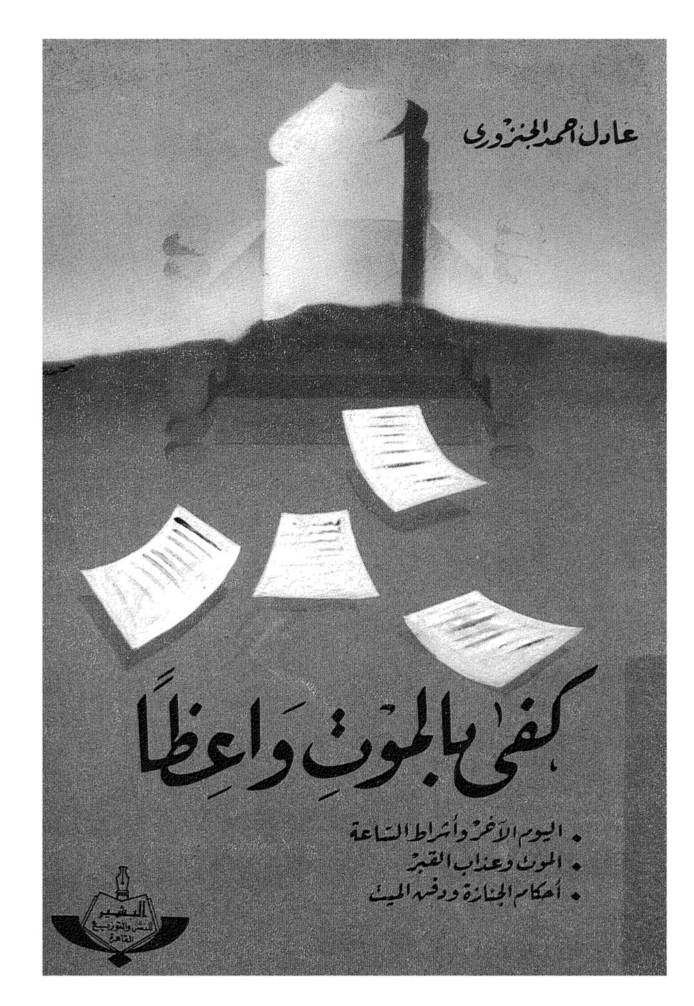
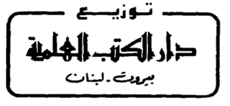

عادل أحمد الجنزوري
كفى بالموتِ واعِظًا
• اليوم الآخر وأشراط الساعة
• الموت وعذاب القبر
• أحكام الجنازة ودفن الميت
البشير
للنشر والتوزيع
القاهرة

كفى بالموتِ واعظا



دار البشير - القاهـرة
للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٠ طريق المعادى الزراعى ص . ب ١٦٩ المعادى . ت : ٢١٨٧٣٦٨

عادل أحمد الجنزوري

كفى بالموت واعظًا

- اليوم الآخر وأشراط الساعة
- الموت وعذاب القبر
- أحكام الجنازة ودفن الميت

دار البشير
القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

(الآية ٤١ من سورة إبراهيم)

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

(الآية ٢٨ من سورة نوح)

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ... وبعد

لسنا مجاوزين للحقيقة إذا قلنا : إننا نعيش عصراً مادياً تراجعت فيه كثير من القيم الروحية والدينية ، وحل محلها قيم أخرى تساير طبيعة هذا العصر وتتمشى مع تطوراته ، حيث انفتحت الدنيا على الناس وظهر لهم زخرفها وبهرجها ، وأسرهم حبها والسرور بها ، واستعبدهم الحرص عليها وحب البقاء فيها ، فأصبحوا وأمسوا لها عاملين ، وبها مشتغلين ، لا هَمَّ لهم سواها ، ولا منتهى لآمالهم إلا هى .

وبذلك انصرف الناس بالدنيا عن الآخرة ، وغفلوا عن حقيقة أمرهم ، ونهاية المطاف بهم ، ونسوا الموت وما بعده ، فلم يقدموا لأنفسهم شيئاً لذلك اليوم ، وما تزال الدنيا تغريهم وتُمنِّيهم حتى يفاجئهم الموت ، وتنكشف أمامهم الحقيقة التى طالما غفلوا عنها أو تغافلوا ، فيندمون ساعة لا ينفع الندم ، وصدق الله العظيم : ﴿ اقْتَرَبَ للناسِ حسابُهُمْ وَهُمْ فى غفلةٍ مُعْرِضُونَ مَاَيأْتيهم مِنْ ذِكْرٍ من ربهم مُحْدَثٍ إلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يلعبُونَ * لاهيَةً قلوبُهُمْ ﴾ (١)

والسبب فى هذه الوهدة السحيقة التى تردينا فيها دينياً وأخلاقياً ، أننا نسينا أننا سنموت أو تجاهلنا هذه الحقيقة وغفلنا عنها ، أو أن زهرة الدنيا وفتنتها أعمت عيوننا عن هذه النهاية ، فأصبح بيننا وبين الموت حجاب غليظ وحاجز منيع من حب الدنيا وشهواتها ، فمن ذا الذى يتصور أنه سيموت ويُقبر ويُهال عليه التراب ! ! ؟

إنه يتوقع الموت جارٍ على أى إنسان إلا هو ، فالموت منه بعيد بعيد ،

---

(١) الأنبياء : ١ ـ ٣

وهل يعقل أن يموت وهو الصحيح السليم ، أو وهو العزيز العظيم ، أو وهو الشاب الفتى ، أو وهو الغنى الثرى ، أو وهو صاحب المنصب والدرجة ، إن الموت بعيد من هؤلاء ، وهو جارٍ على المريض السقيم أو على الشيخ الكبير ، وهكذا نستبعد الموت ونغفل عن غوائله ، وما أصدق ما قاله الإمام الحسن البصرى ـ رحمه الله :

« ما رأيت يقيناً أشبه بالشك من يقين الناس بالموت »

لذا أوصانا الرسول ﷺ بالاكثار من ذكر الموت وتوقعه وانتظاره ، ليظل هذا الذكر دافعاً لنا إلى العمل الصالح والسعى الجاد للآخرة ، وليحملنا ذكر الموت على تقوى الله وخشيته ومراقبته والخوف من عذابه وشديد نكاله بالعاصين ، فتستقيم بذلك أحوالنا فى الدنيا ، ونأمن من عذاب الله فى الآخرة ، وهذه هى الثمرة من تذكر الموت وما أعظمها ذكرى وموعظة ، فقال ﷺ : « أكثروا من ذكر هاذم اللذات »[1] أى الموت .

وقد أوضح القرآن الكريم لنا حقيقة الدنيا فى آيات كثيرة ، من حيث هى حياة فانية لا بقاء لها ، وما هى إلا زينة وسراب خادع وفتنة ، وهى دار العمل والاستعداد لدار أخرى هى أعظم وأبقى ، حيث حياة دائمة لا تفنى ، ونعيم حقيقى لا يزول ، من هذه الآيات الكثيرة قوله تعالى :

﴿ اعلموا أنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ ولهْوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأموالِ والأولاد كمثلِ غَيْثٍ أعجبَ الكفارَ نباتُهُ ثم يهيجُ فتَراهُ مُصْفَراً ثم يكونُ حُطَاماً وفى الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ وما الحياةُ الدُّنيا إلا متاعُ الغرورِ ﴾[2]

والرسول ﷺ يحذرنا من الدنيا والارتماء فى أحضانها والركون إليها ، فهى عند الله هينة فانية ، ولا عيش إلا عيش الآخرة ، فهى الحياة الحقيقية التى تستحق العمل والسعى ، وأن يبذل فى سبيلها كل غالٍ

---

(١) رواه الترمذى وقال : حسن ، والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة .

(٢) الحديد : ٢٠

ونفيس ، فيقول ﷺ : « إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »[1]

والحقيقة أن أمر الاسلام قائم على الجمع بين الدنيا والآخرة ، والمسلم مطالب بهما جميعاً فى سعيه ، بحيث يوازن بينهما ، ويعمل لكل منهما على قدر حاجته إليها وبقائه فيها ، ولا يستقيم الأمر إذا انحاز إلى إحديهما على حساب الأخرى ، والقرآن الكريم ينعى على أولئك الذين يقولون :

﴿ رَبَّنَا آتِنَا فى الدنيا وَمَا لَهُمْ فى الآخرة مِنْ خَلَاقٍ ﴾

ويمدح هؤلاء الذين يقولون : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فى الدنيا حسنةً وفى الآخرة حسنةً وقِنَا عذابَ النَّارِ أولئك لهم نَصيبٌ مما كسبُوا واللهُ سريعُ الحسابِ ﴾ [2]

وكان من دعاء الرسول ﷺ : « اللهم أصلح لى دينى الذى هو عصمة أمرى و أصلح لى دنياى التى فيها معاشى ، و أصلح لى آخرتى التى إليها مَعَادِى » [3]

وإذا كان للمسلم أن يُغلِّب من أمر الدنيا والآخرة جانبًا على الآخر ، فإنه لا يليق به أبداً أن يغلب دنياه على آخرته ، وهو يعلم يقينا فناء الدنيا وبقاء الآخرة ، ويقرأ قول ربه عز وجل : ﴿ وَمَا هذه الحياةُ الدنيا إلا لهوٌ ولعبٌ وإنَّ الدارَ الآخرةَ لَهِيَ الحيوانُ لَوْ كَانُوا يعلمُونَ ﴾ [4]

« فالحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهى الحياة اللائقة بالانسان الكريم على الله ، الذى خلقه فسواه وأودع روحه ذلك السر الذى ينزع به

---

(١) متفق عليه .
(٢) البقرة : ٢٠٠ ـ ٢٠٢
(٣) رواه مسلم .
(٤) العنكبوت : ٦٤

إلى السماء وإن استقرت على الأرض قدماه »[1]

وبعد .. فبين يدى القارئ الكريم هذا الجهد المتواضع الذى أردت من ورائه أن أذكِّر نفسى وإخوانى بأمر الموت والآخرة ، لنأخذ منه العبرة والعظة ، وليكون دافعاً لنا إلى المبادرة بالتوبة وتقديم العمل الصالح والاستعداد للموت قبل حلوله ، وانتهاز الفرصة قبل ضياعها . وسميته : «كفى بالموت واعظاً » لعلنا نخرج منه بموعظة نافعة تأخذ بأيدينا إلى طريق الله وهى غاية ما نرجو من الدنيا ، ونسأل الله الهداية وحسن الخاتمة .

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

عادل أحمد الجنزورى

---

(١) فى ظلال القرآن : (٤ / ٢٢١٩) دار الشروق .

الباب الأول

ـ الفصل الأول

* الإيمان باليوم الآخر .

ـ معنى الإيمان .

ـ اليوم الآخر .

ـ منكرو البعث .

ـ إثبات البعث والرد على المنكرين له .

ـ أمثلة لإحياء الموتى .

ـ بداية اليوم الآخر .

ـ متى الساعة ؟

ـ الفصل الثانى

* أمارات الساعة .

ـ الدخان .

ـ نزول عيسى عليه السلام .

ـ خروج المسيح الدجال .

ـ خروج ياجوج ومأجوج .

ـ خروج الدابة التى تكلم الناس .

ـ طلوع الشمس من المغرب .

ـ علامات أخرى .

الفصل الأول
الايمان باليوم الآخر

ليس أعز على المسلم من دينه وعقيدته ، هذا الدين الذى رضيه الله لأهل سمواته وأرضه ، وبعث به رسله ، وأنزل به كتبه ، وأمر ألا يُعْبَدُ إلا به ، ولا يُقبل من أحد سواه ، ولا يرغب عنه إلا من سفه نفسه ، وهو سبيل السعادة فى الدنيا ، ومرفأ النجاة فى الآخرة .

قال تعالى : ﴿ اليومَ أكملتُ لكم دينكُمْ وأتممتُ عليكم نِعْمتى وَرَضِيتُ لكمُ الاسلامَ دِيناً ﴾

وقال تعالى : ﴿ إنَّ الدينَ عند اللهِ الإسلامُ ﴾ (١)

وهذا الدين فى الحقيقة خير ما أنفق فيه الإنسان جهده ووقته وماله ، وقد قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وإنما العلم بالتعلم و إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر » .

وواجب على كل مسلم أن يكون على بصيرة من أمر دينه ، وأن يتحقق من صدق إيمانه بربه ، بأن يعرض حاله على كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ وأقوال الأئمة من سلفنا الصالح ، ليتبين أين هو من دين الله .

ويدور حديثنا فى هذا الفصل حول الركن الخامس فى عقيدتنا الغراء ، ألا وهو الإيمان باليوم الآخر وما يحدث فيه ، ليظل إيمانا بهذا اليوم دافعاً لنا إلى الاستعداد له والتأهب لوقوعه ، والتزود بخير الزاد

---

(١) آل عمران : ١٩

للقاء الله.

وفى حديث صحيح مشهور فى كتب السنة عن جماعة من صحابة رسول الله ﷺ يبين لنا أصول الدين وشرائعه ومراتبه ، حديث جامع نافع ، نبدأ به كلامنا ونوصى القارئ الكريم بحفظه وتدبره ، فسوف نرجع إليه فى مواطن كثيرة من هذا الكتاب .

عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخديه ، وقال : يا محمد أخبرنى عن الاسلام ، فقال رسول الله ﷺ : الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً . قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الايمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال: صدقت ، فأخبرنى عن الإحسان ، قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : فأخبرنى عن الساعة ، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، قال : فخبرنى عن أماراتها ، قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان ، قال : ثم انطلق فلبث مليا ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1]

وفى الحديث بيان لأركان الإيمان ويعنينا هنا (الايمان باليوم الآخر)

ما الإيمان ؟

الإيمان فى اللغة : يعنى التصديق ، فقد قال إخوة يوسف ـ عليه

---

(١) فتح البارى : ١ / ١٤٠ (حديث ٥٠)

السلام ـ لأبيهم :

« وَمَا أنتَ بِمُؤمنٍ لَنَا » أى مُصدِّق ، ومعنى التصديق هنا : التصديق الإذعانى المستلزم للانقياد .

والايمان فى الشرع يطلق على حالتين :

الحالة الأولى :

أن يطلق لفظ الإيمان مفرداً ، غير مقترن بالاسلام ، وحينئذ يراد به الدين كله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ اللهُ ولىُّ الذينَ آمنُوا يخرجُهُمْ مِنَ الظلمات إلى النُّورِ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ واللهُ ولىُّ المؤمنين ﴾ (٢)

ولهذا حصر الله ـ عز وجل ـ الإيمان فيمن التزم أوامر الدين كلها ظاهرة وباطنة . فى قوله تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ و إذَا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ زادتْهُمْ إيماناً وعلى ربهم يتوكَّلُونَ الذينَ يُقيمون الصَّلَاةَ ومما رزقناهُمْ ينفقُونَ أولئكَ هُمُ المؤمنُونَ حَقّاً لهم درجاتٌ عند ربهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾ (٣)

وفى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أفلح المؤمنون الذين هُمْ فى صلاتهم خَاشعُونَ والذين هُمْ عَنْ اللغو مُعْرِضُونَ والذين هُمْ للزكاة فَاعلُونَ والذينَ هُمْ لفروجهم حَافظُونَ إلاَّ على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانُهُمْ فإنهم غَيْرُ ملُومِينَ فمن ابتغَى وراء ذَلكَ فأولئك هُمُ العَادُون والذين هُمْ لأماناتهم وَعهدهمْ راعُونَ والذين هُمْ على صلَوَاتهمْ يحافظُونَ أولَئك هُمْ الوارثُونَ الذين يرثُونَ الفِرْدَوسْ هُمْ فيها خَالدونَ ﴾ (٤)

وفى الصحيحين : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها : قول لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من

---

(١) البقرة : ٢٥٧ ، وانظر فى ذلك : معارج القبول ١ / ٢١ وما بعدها .

(٢) آل عمران : ٦٨

(٣) الأنفال : ٢ ـ ٤

(٤) المؤمنون : ١ ـ ١١

الإيمان » وهذه الشُّعب المذكورة ـ والتى عناها الحديث الشريف ـ قد جاءت فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة فى مواضع متفرقة ، منها ما هو من قول القلب وعمله ، ومنها ما هو من قول اللسان ، ومنها ما هو من عمل الجوارح ، ولما كانت الصلاة جامعة لقول القلب وعمله ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح ، سماها الله ـ تعالى ـ إيماناً فى قوله : ﴿ وَمَا كانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمانكُمْ ﴾ [1] يعنى صلاتكم ، كما هو معلوم من سبب نزول الآية.

وهذا المعنى هو الذى قصده سلفنا الصالح ـ رحمهم الله ـ بقولهم : إن الإيمان : اعتقاد ، وقول ، وعمل ، وإن الأعمال كلها داخلة فى مسمى الإيمان .

الحالة الثانية :

أن يطلق الإيمان مقروناً بالاسلام ، وحينئذ يكون معناه : الاعتقادات القلبية التى وردت فى حديث جبريل ـ عليه السلام ـ من أن الايمان هو : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وهذه كلها أمور قلبية ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ وَالذِينَ آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالحاتِ﴾ فى مواضع كثيرة من كتاب الله .

ويزيد هذا التعريف وضوحاً قول الرسول ﷺ فى دعاء الجنازة :

« اللهم من أحييته منا فأحيه على الاسلام ، ومن توفيته منا فتوفَّهُ على الإيمان » وذلك لأن الأعمال بالجوارح إنما يُتمكَّن منها فى الحياة ، فأما عند الموت فلا يبقى غير قول القلب وعمله ، وهو الإيمان .

وخلاصة هذا التعريف : أنه إذا أُفْرِدَ كل من الإيمان والاسلام بالذكر، فلا فرق بينهما حينئذ ، بل كل منهما على انفراده يعنى الدين كله ، وإن جمع بين الاسمين كان معناهما ما ورد فى حديث جبريل من أن الايمان هو عمل القلب ، والاسلام هو عمل الجوارح .

---

(١) البقرة : ١٤٣

اليوم الآخر

هو يوم القيامة . يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فيحاسبهم ويحكم بينهم . « والمراد بهذا اليوم أمران : الأول : فناء هذه العوالم كلها ، وانتهاء هذه الحياة بكاملها ، والثانى : إقبال الحياة الآخرة ، وابتداؤها ، فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة ، وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثانى له البتة » [1]

والإيمان بهذا اليوم الموعود ركن أساسى فى عقيدة المسلم ، لا يستقيم الدين إلا به ، إيماناً جازماً لا يعتريه الشك ، فلقاء الله فى الآخرة حق ، وقد جاء بذلك القرآن الكريم وأخبرت به السنة النبوية بما لا يدع مجالاً للشك فيه فضلاً عن إنكاره .

— — —

يقول ـ تعالى ـ فى شأن اليوم الآخر :

﴿ و الذين يُؤمنُونَ بما أنْزِلَ إليكَ وما أُنزلَ مِنْ قبلِكَ وبالآخرة هُمْ يُوقنُونَ ﴾ [2]

﴿ واتقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى اللهِ ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما عمِلتْ وَهُمْ لا يُظلمُونَ ﴾ [3]

﴿ رَبَّنَا إنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ ليوم لا رَيْبَ فيهِ إنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الميعادَ ﴾ [4]

﴿ فكيْفَ إذَا جمعناهُمْ ليومٍ لاَ رَيْبَ فيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْس ما كسبتْ وَهُمْ

---

(١) عقيدة المؤمن ٣٢١

(٢) البقرة : ٤

(٣) البقرة : ٢٨١

(٤) آل عمران : ٩

(٥) آل عمران : ٢٥

﴿ اللهُ لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ لَيجْمعنكُمْ إلى يَوْم القيامةِ لا رَيْبَ فيهِ وَمَنْ أصدَقُ مِنَ الله حديثاً ﴾ (١)

﴿ إنَّ الذينَ لا يُؤْمنُونَ بالآخرةِ زَيَّنَّا لهم أعمالهم فَهُمْ يعمهُونَ ﴾ (٢)

﴿ إنَّ الساعةَ آتيةٌ أكادُ أُخْفيهَا لتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَى فَلاَ يَصدُنَّكَ عنها مَنْ لاَ يُؤْمنُ بها واتبع هَوَاهُ فتردَى ﴾ (٣)

﴿ إنَّ الساعةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها وأَنَّ اللهَ يبعثُ مَنْ فى القُبُورِ ﴾ (٤)

﴿ قُلْ لَكُمْ ميعَادُ يَوْمٍ لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقْدِمُونَ ﴾ (٥)

﴿ إنَّ فى ذَلكَ لآيةً لمن خَافَ عَذَابَ الآخرَةِ ذَلكَ يَوْمٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يَوْمٌ مشهودٌ وما نُؤَخِّرُهُمْ إلاَّ لأجلٍ مَعْدُودٍ ﴾ (٦)

﴿ إنَّ ما تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أنتم بمعجزِينَ ﴾ (٧)

هذا .. وفى القرآن الكريم آيات كثيرة - لا يمكن حصرها فى هذه العجالة - تثبت اليوم الآخر والبعث والنشور والحساب ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وفى الصحيحين عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة ، فقال : « يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿ كما بَدأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُهُ وَعْدَاً علينا إنَّا كُنَّا فَاعلِينَ ﴾ ألا وإن أول الخلائق يكسى إبراهيم - عليه السلام - ألا وإنه سيجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يارب أصحابى ، فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد

---

(١) النساء : ٨٧

(٢) النمل : ٤

(٣) طه : ١٥ _ ١٦

(٤) الحج : ٧

(٥) سبأ : ٣٠

(٦) هود : ١٠٣ _ ١٠٤

(٧) الأنعام ١٣٤

الصالح : ﴿ وكنتُ عليهم شَهيداً ما دُمْتُ فيهم فلما تَوَفَّيتَنى كُنْتَ أنْتَ الرقيبَ عليهم وأنْتَ على كُلِّ شئٍ شَهيدٌ إنْ تُعذِّبْهُمْ فإنهم عبادُكَ وإنْ تغفرْ لهم فإنَّكَ أنْتَ العزيزُ الحكيمُ﴾ [1] قال : فيقال لى . إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم »

وفى الصحيحين أيضاً أن رجلاً من الأعراب سأل رسول الله ﷺ عن الساعة ، فقال : « إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » فقال الرجل : يا رسول الله ما أعددت لها كبير صلاة ولا عمل ، ولكنى أحب الله ورسوله ، فقال : «أنت مع من أحببت » فما فرح المسلمون بشئ فرحهم بهذا الحديث [2]

والأحاديث فى هذا الباب أجل من أن تحصى ، ونكتفى بما ذكرناه منعاً للإطالة .

والمؤمن يعتقد فى هذا اليوم اعتقاداً جازماً ، لا يعتريه الشك ، ولا تساوره الريب ، اعتقاداً أرسخ من الجبال الشم فى ثبوتها ، وأظهر من الشمس فى وضح النهار ، لأنه تلقى أخبار هذا اليوم من أصدق الحديث كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن أقوال الرسول ﷺ وهو الصادق الذى لا ينطق عن الهوى .

« إن من أعظم الأدلة على البعث والجزاء والحياة الآخرة إخبار الله ـ تعالى ـ وإخبار رسوله ﷺ ، فمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا يجد داعياً للشك ، ولا مثاراً للجدل والنزاع فى ثبوت المعاد ، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ، إذ أخبار الله ـ تعالى ـ وأخبار رسوله ﷺ كلها صدق وحق ، فقد أخبر ـ تعالى ـ بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر ، كما أخبر رسوله ﷺ بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله ، فكيف يعقل إذاً أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله ﷺ بمئات

---

(١) المائدة : ١١٧ ـ ١١٨ . والحديث رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى

(٢) رواه البخارى بنحوه فى كتب الأدب ، وفى كتاب الأحكام ، ورواه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب ، والترمذى فى أبواب الزهد

الأخبار عن ثبوت الحياة الآخرة ، وعن كل ما يجرى فيها من بعث وحساب وجزاء ، ثم لا يصح شئ من ذلك ، ولا يثبت ؟ ! اللهم إن هذا باطل لا يصح ، ومحال لا يقبل ولا يعقل .. » [1]

أضف إلى نصوص الكتاب والسنة فى إثبات اليوم الآخر ، أنه ضرورة حتمية يقتضيها العدل الإلهى المطلق ، إذ إن الله ـ عز وجل ـ خلق الكون كله بحكمته ، ويستحيل عليه ـ سبحانه ـ العبث واللهو واللعب ، قال تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أنما خلقناكُمْ عَبَثاً وأنكم إليْنَا لا تُرْجعُونَ فتعالى اللهُ الملِكُ الحقُّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَيحسَبُ الإنْسَانُ أنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [2]

فهل يستقيم فى عدل الله تعالى وحكمته أن تكون هذه الدار الفانية ، التى هى أهون عند الله من جناح بعوضة ، هى نهاية الأمر وآخر المطاف ، ويتساوى الجميع بالموت ، فلا فرق بين محسن وعاصٍ ، ومؤمن وكافر ، وظالم ومظلوم ؟

كلا والله ، وحاشا لله أن تكون هذه نهاية خلقه ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل إن الله ـ عز وجل ـ فى خلقه منهجاً متكاملاً ، لا يعتريه النقص أو القصور ، منهجاً ينتظم حياة الخلق فى الدنيا والآخرة فكل منهما مكملة للأخرى ، وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ وما خلقْنَا السَّموات والأرْضَ و ما بينهما لاَعبينَ * ما خلقناهُمَا إلاَّ بالحقِّ ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمُونَ * إنَّ يَوْمَ الفَصْلِ ميقاتُهُمْ أجمعِينَ ﴾ [3]

فقد خلق الله الكون كله سمواته وأرضه ، وجعله صالحاً لحياة الإنسان الذى كرمه الله ، وجعله خليفة له فى أرضه ، وفضَّله على سائر مخلوقاته، بأن جعل فيه عقلاً يفكر ، وإرادة حرة تختار وتميز ، ثم أرسل

---

(١) عقيدة المؤمن : ٣٢٩

(٢) القيامة : ٣٦

(٣) الدخان : ٣٨ ـ ٤٠

إليه الرسل وأنزل عليه الكتب ، لهدايته وإرشاده ، وبيَّن له طريق الهداية ووعده عليها الجنة وطريق الغواية وتوعده عليها بالنار ، ثم تركه حراً يقارن ويختار .

وبذا يكون اليوم الآخر جزءاً أساسياً وحتمياً ليكتمل منهج الله بمجازاة المحسن على إحسانه والمسيئ على إساءته ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، يوم توضع الموازين ويقف الناس بين يدى رب العالمين .

وقد أوضح القرآن الكريم هذا الجزاء العادل فى مواضع كثيرة من كتاب الله ، فقال تعالى :

﴿ وَنَضَعُ الموازينَ القسْطَ ليوم القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نفْسٌ شيئاً وإنْ كانَ مثقالُ حبةٍ من خَرْدَلٍ أتيناَ بها وكَفَى بنَا حَاسِبِينَ ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿ إنَّهُ يبدأ الخلْقَ ثم يُعيدهُ ليْجزِىَ الذين آمنُوا وعملُوا الصَّالحات بالقسْط والذين كفروا لهم شرابٌ مِنْ حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانُوا يكفُرُونَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ إنَّ سَعْيكُمْ لَشتَّى فَأمَّا مَنْ أعطَى وَاتَّقَى وصدَّقَ بالحُسنَى فَسَنُيسِّرُهُ لليُسْرَى وأما مَنْ بَخِلَ واستغنى وكذَّبَ بالحُسنى فَسَنُيسِّرهُ للعُسْرى . وما يُغْنِى عنه مَالُهُ إذَا تَردَّى ﴾ (٣)

« إن حتمية الفناء ، ووجود معاد كامل ، وحياة أفضل تحوى نعيماً للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وجحيماً للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات ، مما أخبر الله تعالى به وقرره فى كل كتبه وعلى ألسنة جميع رسله ، فالشك فيه ضرب من المرض العقلى والهبوط الشخصى ، والعياذ بالله تعالى من ذلك ، فالناس يعيشون فى هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتاً كبيراً فى أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم ، وفى سعادتهم وشقائهم ، فمنهم الظالم الغشوم . ومنهم المظلوم المهضوم ،

---

(١) الأنبياء : ٤٧

(٢) يونس : ٤

(٣) الليل : ٤ ـ ١١

ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغنى الثرى ، ومنهم الفقير الشقى ، ومنهم العزيز ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسئ ، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف ، فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ، ولا يبعثون ، لكان ذلك منافياً للحكمة ، مجانباً للعدل والرحمة ، ومن هنا قضى الله ـ تبارك وتعالى ـ بالبعث والجزاء ، وحكم بهما ، فهما كائنان لا محالة ، وقد أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يقسم عليهما فى قوله ـ تعالى :

﴿ زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعثُنَّ ثُمَّ لَتنبؤُنَّ بما عملْتُمْ وَذَلِكَ على اللهِ يسيرٌ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ وأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أيمانِهمْ لا يبعثُ اللهُ مَنْ يموتُ بَلَى وَعْدًا عليهِ حقاً ولكنَّ أكثر النَّاسِ لا يعلمُونَ لِيُبيِّنَ لهمُ الذى يختلفُونَ فيهِ وليعلَمَ الذِينَ كفرُوا أنهمْ كانوا كاذبينَ إنما قولُنَا لشىءٍ إذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نقولَ لَهُ كُنْ فيكونُ ﴾ (٢)

إننا فى مجال عملنا الدنيوى نضع قانون الثواب والعقاب لتستقيم الأوضاع وتعتدل الموازين ، فنكافئ المجتهد العامل ، ونعاقب المقصر الخامل ، وإذا لم يطبق بيننا هذا المبدأ عَمَّتْ فينا فوضى مدمرة وأصابنا إحباط شديد يهدر كل الجهود والطاقات ، وإذا كنا لا نرضى هذه الفوضى فى قوانين البشر ومناهجهم ، فهل نتصورها واقعة فى منهج الله ؟!

ومن ناحية أخرى ، لو عرضنا قضية اليوم الآخر وفناء العالم على العقل وقواعده ، ما وجدنا تعارضاً بينهما أبداً ، فحدوث اليوم الآخر ممكن عقلاً ، ذلك لأن العالم الذى نعيشه عالم محدث وليس أزلياً .

وفى قواعد العقل أن ما كان محدثاً فهو عرضة للتغيير والتبديل والفناء ، وهذا مشاهد فى الحادثات ، لا يحتاج إلى دليل ، كما أن هذا

---

(١) التغابن ٧ ، وانظر . عقيدة المؤمن . ٢٢٩ ـ ٢٣٠

(٢) النحل ٣٨ ـ ٤٠

العالم كلٌ له أجزاء ، وهانحن نشاهد الفناء يسرى فى أجزائه باستمرار ، فالانسان والحيوان والنبات كلها تفنى أمامنا وتحت سمعنا وبصرنا ، وهى أجزاء من هذا العالم ، كما أننا نرى الزلازل من وقت لآخر تدمر مدنا وقرى ، وتغير معالم الأرض فى كثير من بلاد العالم ، فظاهرة الفناء فى أجزاء العالم دليل على فناء العالم كله ، إذ ما أمكن الفناء فى أجزائه أمكن فناء كله .

فاليوم الآخر واقع لا محالة ، ولا ينكره إلا شقى حُرِمَ نعمة الإيمان ، وُطردَ من رحمة الله ، وصدق الله العظيم : ﴿ إنَّ السَّاعَةَ آتيةٌ لا رَيْبَ فيها ولكنَّ أكثَر النَّاسِ لاَ يُؤمِنُونَ ﴾ (١)

فمن وجد فى نفسه غبارة شك فى لقاء الله والآخرة ، فليعلم أن الشيطان استهواه واستعبده وزين له سوء عمله ليضله ويهلكه ، فليكن منه على حذر ، وليسارع بالتوبة والاستغفار والرجوع والإنابة إلى ربه وخالقه وهذه الحيلة والمكيدة من الشيطان بينها لنا القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا اتقُوا ربكُمْ إنَّ زَلزَلَةَ السَّاعَة شئٌ عظيمٌ ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضعةٍ عمَا أرضَعتْ وتضعُ كُلُّ ذات حَمْلٍ حملها وترى الناسَ سُكَارَى وما هم بسكَارَى ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ ، ومن الناس مَنْ يجادلُ فى اللهِ بغير عِلْمٍ ويتبعُ كُلَّ شيطانٍ مَريدٍ ، كُتِبَ عليه أنَّهُ مَنْ تَولاَّهُ فَأنَّهُ يضله ويهديهِ إلى عذابِ السَّعيرِ ﴾ (٢)

هؤلاء هم الذين أنكروا البعث وقدرة الله على إحياء الموتى ، وأعرضوا عما أنزله الله على أنبيائه من الحق ، واتبعوا فى إنكارهم وكفرهم كل شيطان مريد من الانس والجن ، كما هى حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل ، يتركون ما أنزل الله ، ويتبعون رؤوس الضلال والكفر ، ويسيرون خلف شيطان مريد يضلهم فى الدنيا ، ويقودهم فى الآخرة إلى عذاب السعير .

---

(١) غافر . ٥٩

(٢) الحج ١ ـ ٤

منكرو البعث

ورغم وضوح الحق وجلائه فى أمر الآخرة ، وما قدمه القرآن الكريم والسنة المطهرة من براهين ساطعة ، وأخبار صادقة ، نجد شراذم من البشر فسدت فطرتهم ، وانحرف بهم الفهم ، وزلت بهم القدم ، فراحوا ينكرون البعث والحساب ، ويكذبون بيوم الدين ، جحوداً ونكراناً وتعاليا ، دون علم يعتمدون عليه ، أو حجة يستندون إليها ، فما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً .

وهؤلاء المنكرون يقسمهم العلماء إلى أربعة أصناف [1]

(١) الأول : صنف أنكر المبدأ والمعاد ، وزعموا أن الأكوان تتصرف بطبيعتها ، فتوجد وتعدم بأنفسها ، فليس لها رب يتصرف فيها ، إنما هى أرحام تدفع وأرض تبلع ، وهؤلاء هم جمهور الفلاسفة الدهرية والطبائعية.

(٢) الثانى : صنف من الدهرية يقال لهم : الدورية ، وهم منكرون للخالق أيضاً ، ويعتقدون أن فى كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شئ إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا فى المعقول ، وكذبوا المنقول . [2]

وهاتان الطائفتان يعمهما قول الله عز وجل :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدنيا نموتُ ونحيَا وما يهلكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ [3]

وللسلف الصالح فى هذه الآية تفسيران : الأول : (نموت ونحيا) أى يموت الآباء ويحيا الأبناء ، هكذا أبداً ، وهو قول الطائفة الأولى : الدهرية .

---

(١) معارج القبول : ٢ / ١٦١ وما بعدها .

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٤ / ١٥٠

(٣) الجاثية : ٢٤

التفسير الثانى : (نموت و نحيا) أى يموتون ويحيون هم أنفسهم ، ويتكرر ذلك منهم أبداً ، ولا حساب ولا جزاء ، بل ولا موجد ولا مُعدِم ، ولا محاسب ، ولا مجازى . وهو قول الدورية .

(٣) الثالث : الدهرية من مشركى العرب ومن وافقهم ، وهم مقرون بالبداءة ، وأن الله تعالى ربهم وخالقهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خلقهم لَيقُولن اللهُ ﴾ [١] ومع هذا قالوا ﴿ إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتتنا الأوُلَى وما نَحْنُ بمنشَرِينَ﴾ [٢] فأقروا بالبداءة والمبدئ ، وأنكروا البعث والمعاد .

(٤) الرابع : وهم ملاحدة الجهمية ومن وافقهم ، وهؤلاء أقروا بمعاد ولكن ليس على ما جاء فى القرآن الكريم ، ولا موافقاً لما أخبرت به الرسل عن الله عز وجل ، بل زعموا أن هذا العالم يعدم عدماً محضاً ، وليس هذا العدم هو المعاد ، بل هو عالم آخر جديد .

فحينئذ تكون الأرض التى تُحَدِّثُ أخبارها ، وتخبر عما حدث عليها من خير أو شر ، ليست هى هذه الأرض ، وتكون الأجساد التى تعذب وتجازى وتشهد على من عمل بها المعاصى ليست هى التى أعيدت بل غيرها ، والأبدان التى تُنَعَّمُ فى الجنة وتثاب ليست هى التى عملت الطاعة، بل هى غيرها تبتدأ ابتداءً محضاً ، وبذلك أنكروا معاد الأبدان ، وزعموا أن المعاد بداءة أخرى .

* * *

---

(١) الزخرف ٨٧

(٢) الدخان ٣٥

إثبات البعث والرد على المنكرين له

وفى سبيل اثبات البعث والرد على منكريه ، سلك القرآن الكريم مسالك عقلية شتى ، وطرقاً استدلالية متعددة تبين قدرة الله عز وجل على البعث والحياة بعد الموت ، وتزيح ستار الشك من النفوس ، وتجلو ما ران عليها من ريب فى لقاء الله .

وها هى آيات الله عز وجل تخاطب كل عاقل يبتغى الهدى ويبحث عن الحق والرشاد .

(١) الاستدلال ببدء الخلق من العدم على إعادته مرة أخرى ، إذ البدء أصعب من الإعادة ، ومن المسلَّمات العقلية : أن الذى بنى بيتاً مثلاً وزيَّنه وجمَّله ، ثم لأمر ما هدمه ، أليس هذا الشخص قادراً على إعادة هذا البناء وتشييده من جديد ، وعلى هيئة أفضل من الأولى ؟ هذا مثل لإعادة الحياة بعد الموت ولله المثل الأعلى .

فقد خلق الله عز وجل الانسان من تراب ، وجعل نسله من نطفة مذرة هينة تافهة ، ثم سوَّاه بشراً سوياً فى أحسن صورة وأجمل هيئة ، وأخبر سبحانه أنه قادر على إعادة هذا الخلق بعد موته وفنائه ، قال تعالى :

(وَهُوَ الذِى يبدأُ الخَلْقَ ثم يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيهِ) [1]

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله فى تفسير هذه الآية [2]

« عن ابن عباس : يعنى أيسر عليه ، وقال مجاهد : الاعادة أهون عليه سبحانه من البداءة والبداءة عليه هينة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يقول تعالى : « كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى : فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته ، وأما شتمه إياى : فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد

---

(١) الروم : ٢٧

(٢) انظر ابن كثير : ٣ / ٤٣٠

الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » انفرد بإخراجه البخارى .

وهذا أُبَىٌّ بن خلف ، أحد رؤوس الكفر والنفاق والتكذيب لدين الله ، يأتى إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم بالٍ ، وهو يفتّه ويذروه فى الهواء ويقول مكابراً : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ فقال ﷺ : «نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت على رسول الله ﷺ آخر سورة (يس) تقول :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإنسانَ أَنَّا خلقْنَاهُ من نُطْفَةٍ فإذَا هُوَ خصيمٌ مُبينٌ ، وَضَرَبَ لَنَا مثلاً وَنَسىَ خَلْقَهُ قال مَنْ يُحيِ العظَامَ وهى رميمٌ ، قُلْ يحييها الذِى أنشأهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بكُلِّ خَلْقٍ عليمٌ ﴾ (١)

فأمر الإعادة بعد الممات لا يستحيل على قدرة الله عز وجل فإنما أمره بين الكاف والنون ، ولا يقاس فعله سبحانه بفعل البشر ، بل ما أراده الله سبحانه كان .

﴿ إنما أمره إذَا أَرَاد شَيْئاً أَنْ يقُولَ لَهُ كُنْ فيكُونُ ﴾ (٢)

(٢) الاستدلال باحياء الأرض الميتة المجدبة ، نراها قحطاً لا حياة فيها، فإذا أنزل الله عليها المطر ، عادت إليها الحياة والنماء ، وشاهدنا فيها ألوان الزروع والثمار .

يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آياته أَنَّكَ تَرَى الأرضَ هَامدَةً فإذَا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وَرَبَتْ وأنبتَتْ من كُلِّ زوجٍ بهيجٍ ، ذَلِكَ بأَنَّ اللهَ هُوَ الحقُّ وأَنَّهُ يُحي الموْتَى وأَنَّهُ على كُلِّ شَىْءٍ قَديرٌ ﴾ (٣)

« وهذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهى القحلة التى لا ينبت فيها شئ ، فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت وتحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها وَرَبَتْ ،

---

(١) يس : ٧٧ ـ ٧٩

(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٣ / ٥٨١

(٣) الحج : ٥ ـ ٦

وأنبتت ما فيها من ألوان الثمار وفنون الزروع وأشتات النباتات ، فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ﴿ إنَّ الذى أحياهَا لمحْيى الموْتى إنَّهُ على كُلِّ شىَءٍ قَديرٌ ﴾

روى الإمام أحمد عن لقيط بن عامر ، أنه قال : يا رسول الله ، أَكُلُّنَا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ، وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به ؟ » قلنا : بلى ، قال : « فالله أعظم » قال : قلت : يارسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ، وما آية ذلك فى خلقه؟ قال : « أما مررت بوادى أهلك ممحلاً ؟ » قال : بلى ، قال : « ثم مررت به يهتز خضراً » قال : بلى ، قال : « فكذلك يحيى الله الموتى ، وذلك آيته فى خلقه » [1]

(٢) الاستدلال بنوم الانسان ثم استيقاظه على إمكان حياته بعد موته، فالنوم فى الحقيقة موت مصغر ، يتوفى الله فيه الأنفس إلى أجل يعلمه ، قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الذى يتوفَّاكُمْ بالليل ويعلمُ ما جَرَحْتُمْ بالنهارِ ثُمَّ يبعثكُمْ فيهِ ليُقْضَى أجلٌ مُسَّمىً ثم إليهِ مَرجعكُمْ ثُمَّ ينبئكُمْ بما كُنتُمْ تعملُونَ ﴾ [2]

ومعنى الآية الكريمة : أنه سبحانه يتوفى عباده فى منامهم بالليل ، وهذا هو التوفى الأصغر ، وهو المقصود بقوله تعالى : ﴿ إذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَى إنِّي مُتوفِّيكَ ورافعُكَ إليَّ ﴾ [3] وقد ذكر الله عز وجل الوفاتين الصغرى والكبرى فى قوله تعالى :

﴿ اللهُ يَتَوفَّى الأنْفُسَ حينَ مَوْتِهَا والتى لم تَمُتْ فى منامها فيمسكَ التى قَضَى عليها الموْتَ وَيُرسلَ الأُخْرَى إلى أجَلٍ مُسمًّى ﴾ [4] أى : فيمسك التى قضى عليها الوفاة الكبرى ، ويرسل الأخرى : أى التى لم تمت ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣ / ٢٠٨

(٢) الأنعام : ٦٠

(٣) آل عمران : ٥٥

(٤) الزمر : ٤٢

ومازال لها فى العمر بقية .

وقد روى ابن مردويه بسنده عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « مع كل إنسان ملك ، إذا نام أخذ نفسه ، ويرده إليه ، فإن أذن الله فى قبض روحه قبضه ، وإلا رد إليه » فذلك قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الذِى يتوفَّاكُمْ بالليلِ ﴾ (1)

وفى أدعية الرسول ﷺ وأذكاره ما يؤكد لنا ذلك ، فكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول : « باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه ، فإن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »

ويقول عند استيقاظه من النوم « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » .

والنوم طبيعة أجراها الله عز وجل على جميع خلقه ، وهو وحده سبحانه الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وها نحن نعاين هذه الآية فى أنفسنا كل يوم ، ننام ونستيقظ دون أن نتفكر فى هذه النعمة ، وقلما نذكر الله عند نومنا واستيقاظنا ، والرسول ﷺ يوصينا فيقول : « إذا استيقظ أحدكم فليقل : الحمد لله الذى رد علىَّ روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لى بذكره » .

(٤) الاستدلال بقدرة الله عز وجل فى خلق آدم من تراب ، وجعل نسله من نطفة على إمكان البعث والنشور ، فلو تفكر الإنسان فى كيفية خلقه وتسويته ، لاهتدى إلى إمكان البعث والنشور ، وإن ذلك هين على الله عز وجل فقد خلقه الله من تراب ، وسوف يعيده إلى التراب ، وهو سبحانه قادر على إحيائه وبعثه ، ولنقرأ من آيات الله ما يُثَبِّتُ إيماننا باليوم الآخر ، ويجلو ما ران على بعض القلوب والعقول من شك فى الآخرة .

يقول تعالى : ﴿ يَا أيُّها الناسُ إنْ كُنْتُمْ فى رَيْبٍ منَ البَعْثِ فإنَّا خلقناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثم من نُطْفةٍ ثم من عَلَقَةٍ ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغير

---

(1) الأنعام : ٦٠ وانظر تفسير ابن كثير : ٢ / ١٣٨

مخلقة لنُبيِّنَ لكم ونُقِرُّ فى الأرحامِ ما نشاءُ إلى أجلٍ مُسَمًى ثُمَّ نخرجكم طفلاً ثُمَّ لتبلُغُوا أشدَّكُمْ ومنكم مَنْ يُتوفَّى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلاَ يعلمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شيئاً ﴾ (١)

وفى هذه الآيات الكريمات دليل ساطع وبرهان قاطع على قدرة الله عز وجل على البعث ، ورد على هؤلاء المكذبين المرتابين فيه ، وهو برهان مشاهد لهم يلمسونه فى أنفسهم ، فقد خلقهم الله من تراب وهو أصل آدم عليه السلام ثم جعل نسله من ماء مهين ، ونطفة هينة مذرة .

« وذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة مكثت أربعين يوماً ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة : أى قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط ، فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخدان وَرِجْلان وسائر الأعضاء ، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهى مضغة ، أرسل الله تعالى إليها ملكاً فنفخ فيها الروح ، وسوّاها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقى أو سعيد، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن خَلْق أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب : رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » (٢)

وأخرج الإمام أحمد فى مسنده : أن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه ، فوضع عليها أصبعه ثم قال : « قال الله تعالى : يا بنى آدم ، أنَّى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك ، مشيت بين بُرْدَيك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقة ؟ » (٣)

---

(١) الحج : ٥

(٢) تفسير ابن كثير : ٣ / ٢٠٦

(٣) تفسير ابن كثير : ٣ / ٥٨١

وما أروع القرآن الكريم حينما يعطينا ملخصاً لحياة الإنسان بين خلقه ومماته ودنياه وآخرته ، فيوجز رحلة الانسان أبلغ إيجاز :

﴿ وَلَقَدْ خلقْنا الانسانَ من سُلَالَةٍ من طينٍ ثُمَّ جعلناهُ نُطْفَةً فى قَرارٍ مكينٍ ثُمَّ خلقْنَا النطْفَةَ علقةً فخلقْنا المُضْغَةَ عظَاماً فكَسَوْنَا العظامَ لحماً ثم أنشأناهُ خَلْقاً آخَرَ فتباركَ اللهُ أحسنُ الخَالِقِينَ ، ثُمَّ إنكم بعد ذَلِكَ لميتون ثُمَّ إنكم يَوْمَ القيامةِ تُبْعثُون ﴾ [1]

(٥) الاستدلال بقدرة الله عز وجل فى خلق السموات والأرض على إمكان البعث واليوم الآخر ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ لَخلْقُ السمواتِ والأرْضِ أكبرُ من خَلْقِ الناسِ ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمُونَ ﴾ [2]

وهذه حجة بينة واضحة لاثبات قدرته تعالى على البعث بعد الموت ، فهو سبحانه خالق السموات بكل ما فيها : الشمس والقمر ، والنجوم والأفلاك ، والأجرام والمجرات ، والسحاب والأمطار . والأرض بكل ما عليها من إنسان وحيوان ، وطيور وأشجار ، وزروع وثمار ، وبحار وأنهار، وصحارى وقفار ، وجبال ووديان . هذا كله فى تناسق بديع ، ونظام عجيب ، ودقة متناهية ، ولا شك أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك كله فهو قادر على ما دونه بطريق الأوْلى والأحرى ، كما قال تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذى خَلَقَ السَّموات والأرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بخلقهنَّ بقادرٍ على أنْ يحيى الموتى بَلَى إنَّه على كُلِّ شَئٍ قديرٌ ﴾ [3]

والله عز وجل يخاطب منكرى البعث خطاباً عقلياً شافياً ، ويسوق لهم حجة أخرى على قدرته تعالى :

﴿ أأنتُمْ أشدُّ خَلْقاً أمِ السماءُ بَنَاهَا ، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأغطَشَ ليلَهَا وأخرجَ ضُحَاهَا ، وَالأرضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا، أخرجَ منها مَاءَهَا

---

(١) المؤمنون : ١٢ ـ ١٦

(٢) غافر : ٥٧

(٣) الأحقاف : ٣٣

وَمَرْعَاهَا ، والجبالَ أرسَاهَا ، مَتَاعاً لكُمْ ولأنعامِكُمْ ﴾[1]

ومعنى : « رفع سَمْكها فسواها » أى : جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء ، و « أغطش ليلها » أى : جعله مظلماً أسود حالكاً ، و « أخرج ضحاها » أى : جعل نهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً ، و « الأرض بعد ذلك دحاها » أى : أخرج منها الماء والمرعى ، وشقق فيها الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال، والسبل والآكام . [2]

وأمر البعث بعد الموت أهون من خلق السموات والأرض ، وإن كنا لا نستطيع القول بأن شيئاً أهون على الله من شئ ، فقدرة الله عز وجل لا حدود لها ، وهو سبحانه لا يعجزه شئ ولا يستعصى عليه أمر ، ولكن قدرة الإنسان العقلية هى القاصرة عن إدراك هذه الحقيقة ، وقد قرر القرآن الكريم أن خلق البشر جميعاً وبعثهم بالنسبة لله كنفس واحدة ، فقال تعالى : ﴿ مَا خَلْقكُمْ وَلاَ بعثكُمْ إلا كنفسٍ واحدةٍ ﴾ [3]

« أى : ما خَلْقُ جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه : ﴿ إنما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ له كُنْ فيكُونُ ﴾ ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إلاَّ واحدة كلمحٍ بالبصر ﴾ أى : لا يأمر بالشئ إلا مرة واحدة ، فيكون ذلك الشئ ، لا يحتاج إلى تكراره وتوكيده » [4]

(٦) الاستدلال بما خلقه الله من إحياء للموتى فى الحياة الدنيا ، وجعله سبحانه مثلاً واقعياً مشاهداً للعيان ، ودليلاً حياً على قدرة الله ، يعتبر به أولو الأبصار فى الدنيا ، وقد ساق لنا القرآن الكريم مشاهد متعددة لإحياء الموتى بإذن الله ، وقع من هذه المشاهد أربعة فى سورة (البقرة) نكتفى بالإشارة إليها ، لنوضح من خلالها قدرة الله عز وجل

---

(١) النازعات : ٢٧ ـ ٣٣

(٢) تفسير ابن كثير : ٤ / ٤٦٨

(٣) لقمان : ٢٨

(٤) تفسير ابن كثير : ٣ / ٤٥١ ـ ٤٥٢

على البعث بعد الموت ، وهذه المشاهد هى :

الأول : قتيل بنى إسرائيل ، وقال تعالى فى شأنه :

﴿ وَإِذْ قتلتُمْ نَفْساً فَادَّارَأتُمْ فيها واللهُ مخرجٌ ما كنتم تكتمُونَ فَقُلْنَا اضربُوهُ ببعضِها كَذَلِكَ يُحيى اللهُ المَوْتَى ويريكُمْ آياتِه لعلكُمْ تعقِلُونَ ﴾ (١)

وذلك أن بنى اسرائيل قتلوا واحداً منهم ، وراح كل منهم يلقى التهمة على الآخر ، فأمرهم موسى عليه السلام أن يضربوا القتيل بجزء من أجزاء البقرة ، فضربوه ، فرجع إليه روحه ، وقال : قتلنى فلان ، ثم عاد ميتاً كما كان . ﴿ كَذَلِكَ يُحيى اللهُ المَوْتَى ﴾ وهذا تنبيه من الله عز وجل على قدرته وإحيائه للموتى ، بما شاهدوه من أمر القتيل ، وجعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد .

الثانى : الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت .

هؤلاء الذين قال تعالى فى حقهم ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ خرجُوا من ديارهم وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فقال لهم اللهُ موتُوا ثُمَّ أحياهُمْ إنَّ اللهَ لذو فضلٍ على الناسِ ولكنَّ أكثَرَ النَاسِ لا يشكُرونَ ﴾ (٢)

قال الحافظ ابن كثير : « كانوا من أهل ذاوردان : قرية على فرسخ من قبل واسط ، وقال ابن عباس : كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون ، قالوا : نأتى أرضاً ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا ، قال الله لهم : «موتوا» فماتوا ، فمر عليهم نبى من الأنبياء ، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم .

وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة فى زمان بنى إسرائيل ، استوخموا أرضهم ، وأصابهم بها وباء شديد ، فخرجوا فراراً من الموت هاربين إلى البَرِّيَّة ، فنزلوا وادياً أفيح فملأوا ما بين

---

(١) البقرة : ٧٢ ــ ٧٣

(٢) البقرة : ٢٤٣ وانظر ابن كثير ١ / ٢٩٨

عدوتيه، فأرسل الله إليهم ملكين : أحدهما من أسفل الوادى ، والآخر من أعلاه ، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد ، فحيزوا إلى حظائر ، وبنى عليهم جدران وفنوا وتمزقوا وتفرقوا ، فلما كان بعد دهر مَرَّ بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له : (حزقيل) فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك ، وأمره أن يقول : أيتها العظام البالية ، إن الله يأمرك أن تجتمعى ، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض ، ثم أمره فنادى : أيتها العظام إن الله يأمرك بأن تكتسى لحماً وعصباً وجلداً ، فكان ذلك وهو يشاهده ، ثم أمره فنادى : أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره ، فقاموا أحياءً ينظرون ، قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة ، وهم يقولون : سبحانك لا إله إلا أنت ، وكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ لذُو فَضْلٍ على الناسِ ﴾ أى فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يشكُرونَ ﴾ أى لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم فى دينهم ودنياهم » .

الثالث : قصة العزير ، وهو المذكور فى قوله تعالى :

﴿ أوْ كالذى مَرَّ على قريةٍ وَهِيَ خَاويةٌ على عُرُوشِهَا قَالَ أنَّى يُحيي هَذه اللهُ بَعْدَ مَوْتها فأماتهُ اللهُ مائَةَ عَامٍ ثُمَّ بعثهُ قال كَمْ لَبثتَ قال لبثت يَوْماً أو بعض يَوْمٍ قَالَ بل لَبِثْتَ مائة عَامٍ فانظُرْ إلى طعامكَ وشرابكَ لم يتسنَّهْ وانظرْ إلى حماركَ ولنَجعلَكَ آيةً للناسِ وانظرْ إلى العظَامِ كيف نُنْشزُهَا ثم نكَسُوهَا لحماً فَلَمَّا تبيَّنَ لَهُ قَالَ أعلمُ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ ﴾ [١]

والمشهور أن هذا المار هو العزير وأن القرية هى بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها ، قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

---

(١) البقرة : ٢٥٩ ، وانظر ابن كثير ١ / ٣١٤

« قوله (على عروشها) أى : ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال : (أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها ؟) وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبُعدها عن العود إلى ما كانت عليه .. (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) .

قال : وعمرت البلدة بعد مضى سبعين سنة من موته ، وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها ، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شئ أحياه الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه ، كيف يحيى بدنه فلما استقل سوياً قال الله له أى بواسطة الملك : (كم لبثت ؟ قال لبثت يوماً أو بعض يوم) قال : وذلك أنه مات أول النهار ، ثم بعثه الله فى آخر نهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال : (أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجده كما تقدم لم يتغير منه شئ ، لا العصير استحال ، ولا التين حمص ، ولا أنتن ، ولا العنب نقص (وانظر إلى حـمارك) أى : كيف يحـييه الله عز وجل وأنت تنظر (ولنجعلك آية للناس) أى : دليلاً على المعاد (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) أى: نرفعها فيركب بعضها على بعض .. (ثم نكسوها لحماً) .

قال السدى وغيره : تفرقت عظام حماره حوله يميناً ويساراً فنظر إليها وهى تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحاً فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ، ثم ركَّب كل عظم فى موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً وبعث الله ملكاً فنفخ فى منخرى الحمار فنهق بإذن الله عز وجل ، وذلك بمرأى من العزير فعند ذلك ، لما تبين له هذا كله (قال أعلم أنَّ اللهَ على كُلِّ شئ قَدِيرٌ) » .

* * *

الرابع : ابراهيم عليه السلام واحياء الموتى ، وقال تعالى فى حقه :

﴿ وإذْ قال إبراهيمُ : رَبِّ أرنى كَيْفَ تُحى المْوتَى قَالَ : أَوَ لَم تُؤْمنْ ؟ قَالَ : بلَى ولكنْ ليطمئنَّ قلبى قَالَ فَخُذْ أربعةً من الطير فَصرُهُنَّ إليكَ ثُمَّ اجعلْ على كُلِّ جبلٍ منهن جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يأتينك سَعْيَاً ، واعلمْ أنَّ الله عزيزٌ حكيمٌ ﴾ [1]

قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية

« ذكروا لسؤال ابراهيم عليه السلام أسباباً منها : أنه لما قال لنمروذ ﴿ رَبِّى الذى يُحيى ويُميتُ ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة ، فقال : ﴿ رَبِّ أَرنى كَيْفَ تُحيى المْوتَى ﴾ فقال له ربه : ﴿ فَخُذْ أربعةً من الطَّيْر فَصرُهُنَّ إلَيْكَ ﴾ أى : اذبحهن ، وقطعهن ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ، ثم قطعهن ونتف ريشهن وفرقهن وخلط بعضهن ببعض ، ثم جزأهن أجزاءاً . وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وأخذ رؤوسهن بيده .

ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن ، فدعاهن كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعياً . ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها ، وجعل كل طائر يجئ ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ، ولهذا قال : (واعلمْ أَنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ) أى : عزيز لا يغلبه شئ ، ولا يمتنع من شئ . وما شاء كان بلا ممانع ، لأنه القاهر لكل شئ ، حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره »

---

(١) البقرة : ٢٦٠ ، وانظر ابن كثير ١ / ٣١٥

هذا وفى القرآن الكريم أمثلة أخرى لإحياء الموتى ، تدل دلالة واضحة على قدرة الله عز وجل على البعث ، فهو حق لا مراء فيه ، وواقع لا محالة، والخير كل الخير لمن صدق بآيات الله ، وخالطت بشاشة الإيمان قلبه ، فاستقام على جادة الطريق وتزود بخير الزاد ليوم القيامة ، وصدق الله العظيم : ﴿ إِنَّ ما تُوعَدُونَ لآتٍ وَمَا أنتم بمعْجِزِينَ ﴾ .

* * *

بداية اليوم الآخر

وإيماننا باليوم الآخر يقتضى أن نؤمن بما يحدثه الله ـ عز وجل ـ فى ذلك اليوم من أحداث جسام وأهوال عظام تبدأ بنفخ إسرافيل فى الصور وما يتبعه من قيام الناس من قبورهم حيث يحشرون إلى الله للحساب وحيث تتطاير صحائف الأعمال وينصب الميزان ، ويوضع الصراط على جهنم ، نسأل الله السلامة من هول ذلك اليوم والأمن من فزعه .

وسوف نذكر لبيان ذلك حديثاً طويلاً يسمى حديث الصور ، يذكر فيه الرسول ﷺ القيامة من بدايتها إلى نهايتها ، والحديث رغم طوله إلا أن فائدته جليلة وموعظته بالغة ، عساه يزجرالعاصى ، ويوقظ الغافل ، ويحيى ما مات فينا من رهبة الآخرة والعمل لها .

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فى الصُّورِ عالِمُ الغيبِ والشهادةِ وَهُوَ الحكيمُ الخبيرُ ﴾ [(1)]

« وقد روينا حديث الصور بطوله من طريق الحافظ أبى القاسم الطبرانى فى كتابه المطولات ، قال حدثنا أحمد بن الحسن المصرى الأيلى ، حدثنا أبو عاصم النبيل ، حدثنا اسماعيل بن رافع عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب القرظى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو فى طائفة من أصحابه فقال :

(إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل ، فهو واضعه على فيه ، شاخصاً بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر ، قلت يارسول الله ، وما الصور ؟ قال : القرن قلت : كيف هو ؟ قال : عظيم ، والذى بعثنى بالحق إن أعظم دارة فيه كعرض السموات والأرض ، ينفخ فيه ثلاث نفخات : النفخة الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله تعالى إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول : انفخ ، فينفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، ويأمره فيطيلها ويديمها ، ولا يفتر ،

---

(١) الأنعام : ٧٣ ، وانظر تفسير ابن كثير : ٢ / ١٤٥ ـ ١٤٩

وهى كقول الله : ﴿ وَمَا ينظرُ هؤلاءِ إلاَّ صيحةً واحدةً ما لها مِنْ فَوَاقٍ ﴾

فَيُسير الله الجبال فتمر مَرَّ السحاب ، فتكون سراباً ، ثم ترتج الأرض بأهلها رجاً فتكون كالسفينة المرمية فى البحر تضربها الأمواج تكفأ بأهلها كالقنديل المعلق فى العرش ترجرجه الرياح ، وهو الذى يقول : ﴿ يَوْمَ ترجفُ الراجفةُ تتبعُهَا الرادِفَةُ قلوبٌ يومئذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ فيميد الناس على ظهرها ، وتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، وتشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتى الأقطار ، فتأتيها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ، ويولى الناس مدبرين ما لهم من أمر الله من عاصم ، ينادى بعضهم بعضاً ، وهو الذى يقول الله تعالى فيه : ﴿ يَوْمَ التَنَادِ ﴾

فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض من قطر إلى قطر ، فرأوا أمراً عظيماً لم يروا مثله ، وأخذهم لذلك من الكرب والهول ما الله به عليم ، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل ، ثم انشقت السماء فانتثرت نجومها ، وانخسفت شمسها وقمرها ، قال رسول الله ﷺ : الأموات لا يعلمون بشئ من ذلك .

قال أبو هريرة : يا رسول الله ، من استثنى الله عز وجل حين يقول : ﴿ فَفَزِعَ مَنْ فى السموات وَمَنْ فى الأرضِ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ﴾ ؟ قال : أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء وهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وقاهم الله فزع ذلك اليوم وآمنهم منه ، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه ، قال : وهو الذى يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتقُوا ربكُمْ إنَّ زلزلةَ الساعة شئٌ عظيمٌ يَوْمَ تَرونَهَا تذهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عما أرضعتْ وتضعُ كُلُّ ذاتِ حملٍ حَمْلَهَا وترى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بسكَارَى ولكنَّ عذابَ اللهِ شَديدٌ ﴾ فيقومون فى ذلك العذاب ما شاء الله ، إلا أنه يطول .

ثم يأمر الله إسرافيل بنفخة الصعق ، فينفخ نفخة الصعق ، فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، فإذا هم قد خمدوا ، وجاء ملك

الموت إلى الجبار عز وجل فيقول : يارب قد مات أهل السموات والأرض إلا من شئت فيقول الله ، وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : يارب بقيت أنت الحي الذى لا تموت ، وبقيت حملة العرش ، وبقى جبريل وميكائيل ، وبقيت أنا ، فيقول الله عز وجل : ليمت جبريل وميكائيل ، فينطق الله العرش فيقول : يارب ، يموت جبريل وميكائيل ، فيقول : اسكت ، فإنى كتبت الموت على كل من كان تحت عرشى ، فيموتان .

ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول : يارب قد مات جبريل وميكائيل ، فيقول الله وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول : بقيت أنت الحى الذى لا تموت ، وبقيت حملة عرشك ، وبقيت أنا ، فيقول الله : لتمت حملة العرش ، فتموت ويأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل ثم يأتى ملك الموت فيقول : يارب قد مات حملة عرشك ، فيقول الله وهو أعلم بمن بقى : فمن بقى ؟ فيقول يارب بقيت أنت الحى الذى لا يموت ، وبقيت أنا فيقول الله : أنت خلق من خلقى ، خلقتك لما رأيت فَمُتْ فيموت .

فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد كان آخراً كما كان أولاً ، طوى السموات والارض طى السجل للكتب ثم دحاهما ، ثم يلقفهما ثلاث مرات ، فيقول : أنا الجبار أنا الجبار أنا الجبار ثلاثاً ، ثم هتف بصوته : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، فلا يجيبه أحد ، ثم يقول لنفسه : لله الواحد القهار ، يقول الله : (يَوْمَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ) فيبسطهما ويسطحهما ثم يمدهما مد الأديم العكاظى ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة .

فإذا هم فى هذه الأرض المبدلة ، مثل ما كانوا فيها من الأولى : من كان فى بطنها كان فى بطنها ، ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ، ثم ينزل الله عليهم ماءاً من تحت العرش ، ثم يأمر الله السماء أن تمطر فتمطر أربعين يوماً ، حتى تكون الماء فوقهم اثنى عشر ذراعاً ، ثم يأمر الله الأجساد أن تنبت فتنبت كنبات الطراثيث ، أو كنبات البقل ، حتى

إذا تكاملت أجسادهم فكانت كما كانت .

قال الله عز وجل : ليحيى حملة عرشى ، فيحيون ، ويأمر الله إسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه ، ثم يقول : ليحيى جبريل وميكائيل فيحييان ، ثم يدعو الله بالأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المسلمين نوراً ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقبضها جميعاً ثم يلقيها فى الصور ، ثم يأمر الله إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث فينفخ نفخة البعث ، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض ، فيقول : ، عزتى وجلالى ، ليرجعن كل روح إلى جسده ، فتدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد فتدخل فى الخياشيم ، ثم تمشى فى الأجساد كما يمشى السم فى اللديغ.

ثم تنشق الارض عنهم ـ وأنا أول من تنشق الأرض عنه ـ فتخرجون سراعاً إلى ربكم تنسلون مهطعين إلى الداعى يقول الكافرون : هذا يوم عسر ، حفاة عراة غلفاً غرلاً ، فتقفون موقفاً واحداً مقداره سبعون عاماً ، لا ينظر إليكم ، ولا يقضى بينكم ، فتبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم تدمعون دماً ، وتعرقون حتى يلجمكم العرق أو يبلغ الأذقان ، وتقولون : من يشفع لنا إلى ربنا فيقضى بيننا ؟ فتقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم ، خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه وكلمه قبلاً ، فيأتون آدم فيطلبون ذلك إليه فيأبى ، ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، فيستقرؤن الأنبياء نبياً نبياً كلما جاءوا نبياً أبى عليهم .

قال رسول الله ﷺ : حتى يأتونى ، فأنطلق إلى الفحص ، فأخر ساجداً ، قال أبو هريرة : يارسول الله ، وما الفحص ؟ قال : قدام العرش ، حتى يبعث الله إلىَّ ملكاً فيأخذ بعضدى ، ويرفعنى ، فيقول لى : يا محمد ، فأقول : نعم يارب ، فيقول الله عز وجل : ما شأنك وهو أعلم ؟ فأقول : يارب وعدتنى الشفاعة فشفِّعنى فى خلقك ، فاقض بينهم ، قال الله : قد شفَّعتك ، أنا آتيكم أقضى بينكم .

قال رسول الله ﷺ : فأرجع فأقف مع الناس فبينما نحن وقوف إذ

سمعنا من السماء حساً شديداً ، فهالنا ، فينزل أهل السماء الدنيا بِمثْلَىْ من فى الأرض من الجن والإنس ، حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ قالوا : لا ، وهو آت ، ثم ينزل أهل السماء الثانية بمثْلَىْ من نزل من الملائكة ، وبمثْلَىْ من فيها من الجن والإنس حتى إذا دنوا من الأرض أشرقت الأرض بنورهم ، وأخذوا مصافهم ، وقلنا لهم : أفيكم ربنا ؟ فيقولون : لا ، وهو آت .

ثم ينزلون على قدر ذلك من التضعيف حتى ينزل الجبار ـ عز وجل ـ فى ظلل من الغمام والملائكة ، فيحمل عرشه يومئذٍ ثمانية ـ وهم اليوم أربعة ـ أقدامهم فى تخوم الأرض السفلى والأرض والسموات إلى حجزهم ، والعرش على مناكبهم ، لهم زجل فى تسبيحهم ، يقولون : سبحان ذى العرش والجبروت ، سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس قدوس قدوس ، سبحان ربنا الأعلى رب الملائكة والروح ، سبحان ربنا الأعلى الذى يميت الخلائق ولا يموت ، فيضع الله كرسيه حيث يشاء من أرضه ، ثم يهتف بصوته ، فيقول : يا معشر الجن والإنس ، إنى قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم وأبصر أعمالكم ، فأنصتوا إلىَّ ، فإنما هى أعمالكم وصحفكم تُقرأ عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

ثم يأمر الله جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم ، ثم يقول : ﴿ أَلَمْ أَعهَدْ إليكم يَابنى آدَمَ ألاَّ تعبدُوا الشيطانَ إنه لكم عدو مُبينٌ وأَنِ اعبُدُونى هَذَا صراطٌ مستقيمٌ ولقدْ أضلَّ منكم جِبِلاًّ كثيراً أَفَلَمْ تكونُوا تعقلُونَ هَـذِه جـهنمُ التى كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ ﴾ أو ﴿ بِهَـا تـكذِّبُونَ ﴾ شك أبو عاصم ، ﴿ وَامتَازُوا اليومَ أيها المجرِمُونَ ﴾ فيميز الله الناس ، وتجثو الأمم .

يقول الله تعالى : ﴿ وترى كُلَّ أمة جاثيةً كل أمةٍ تُدْعَى إلى كتابها

اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كنتم تعملُونَ ﴾ .

فيقضى الله عز وجل بين خلقه إلا الثقلين : الجن والإنس ، فيقضى بين الوحوش والبهائم ، حتى إنه ليقضى للجمًّاء من ذات القرن ، فإذا فرغ من ذلك فلم تبق تبعة عند واحدة للأخرى ، قال الله لها : كونى تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر : (يَا لَيْتنى كُنْتُ تراباً) .

ثم يقضى الله بين العباد ، فكان أول ما يقضى فيه الدماء ، ويأتى كل قتيل في سبيل الله ، ويأمر الله عز وجل كل من قتل فيحمل رأسه تشخب أوداجه ، فيقول : يـارب ، فيما قتلنى هـذا ؟ فيقول وهو أعلم ـ فيم قتلتهم ؟ فيقول : قتلتهم لتكون العزة لك فيقول الله له : صدقت ، فيجعل الله وجهه مثل نور الشمس ، ثم تمر به الملائكة إلى الجنة ، ثم يأتى كل من قتل على غير ذلك يحمل رأسه وتشخب أوداجه ، فيقول يارب فيم قتلنى هذا ؟ فيقول وهو أعلم لم قتلتهم ؟ فيقول : يارب قتلتهم لتكون العزة لى ، فيقول تعست ، ثم لا تبقى نفس قتلها إلا قتل بها ، ولا مظلمة ظلمها إلا أخذ بها، وكان فى مشيئة الله : إن شاء عذبه ، وإن شاء رحمه .

ثم يقضى الله تعالى بين من بقى من خلقه حتى لا تبقى مظلمة لأحد عند أحد إلا أخذها الله للمظلوم من الظالم ، حتى إنه ليكلف شائب اللبن بالماء ثم يبيعه أن يخلص اللبن من الماء .

فإذا فرغ الله من ذلك نادى مُنَادٍ يُسمع الخلائق كلهم ! ألا ليلحق كل قوم بآلهتهم ، وما كانوا يعبدون من دون الله ، فلا يبق أحد عبد من دون الله إلا مَثُلَتْ له آلهته بين يديه ، ويجعل يومئذ ملك من الملائكة على صورة عزير ، ويجعل ملك من الملائكة على صورة عيسى بن مريم ، ثم يتبع هذا اليهود وهذا النصارى ، ثم قادتهم آلهتهم إلى النار ، وهـو الذى يقول : ﴿ لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلهةً ما وَرَدُوهَا وكلٌ فيها خالدُون ﴾ .

فإذا لم يبق إلا المؤمنون ، فيهم المنافقون جاءهم الله فيما شاء من هيئته ، فقال : يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم

تعبدون ، فيقولون : والله ما لنا إله إلا الله ، وما كنا نعبد غيره ، فينصرف عنهم ، وهو الله الذى يأتيهم فيمكث ما شاء الله أن يمكث ، ثم يأتيهم فيقول : يا أيها الناس ذهب الناس فالحقوا بآلهتكم وما كنتم تعبدون ، فيقولون : والله ما لنا إله إلا الله ، وما كنا نعبد غيره ، فيكشف لهم عن ساقه ، ويتجلى لهم من عظمته ما يعرفون أنه ربهم فيخرون للأذقان سجداً على وجوههم ويخر كل منافق على قفاه ويجعل الله أصلابهم كصياصى البقر .

ثم يأذن الله لهم فيرفعون ، ويضرب الله الصراط بين ظهرانى جهنم كحد الشفرة أو كحد السيف ، عليه كلاليب وخطاطيف وحسك كحسك السعدان ، دونه جسر دحض مذلة ، فيمرون كطرف العين أو كلمح البرق أو كمر الريح أو كجياد الخيل ، أو كجياد الركاب أو كجياد الرجال ، فناج سالم ، وناج مخدوش . ومكدوس على وجهه فى جهنم .

فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة ، قالوا : من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة ؟ فيقولون : من أحق بذلك من أبيكم آدم عليه السلام ـ خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ، وكلمه قبلاً ، فيأتون آدم فيطلب ذلك إليه فيذكر ذنباً ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بنوح ، فإنه أول رسل الله ، فيؤتى نوح فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ويقول ما أنا بصاحب ذلك . ويقول : عليكم بابراهيم فإن الله اتخذه خليلاً .

فيؤتى إبراهيم فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ويقول : ما أنا بصاحب ذلك ، ويقول عليكم بموسى ، فإن الله قربه نجياً ، وكلمه وأنزل عليه التوراة ، فيؤتى موسى فيطلب ذلك إليه ، فيذكر ذنباً ، ويقول : لست بصاحب ذلك ، ولكن عليكم بروح الله وكلمته عيسى بن مريم ، فيؤتى عيسى بن مريم فيطلب ذلك إليه ، فيقول : ما أنا بصاحبكم ، ولكن عليكم بمحمد .

قال رسول الله ﷺ : فيأتونى ، ولى عند ربى ثلاث شفاعات وعدنيهن ، فأنطلق فآتى الجنة ، فآخذ بحلقة الباب ، فأستفتح فَيُفتح لى

فأحياً ويرحب بى ، فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربى خررت ساجداً ، فيأذن الله لى من تحميده وتمجيده بشئ ما أذن به لأحد من خلقه ثم يقول : ارفع رأسك يا محمد ، و اشفع تُشفَّع ، وسَل تُعْطَ ، فإذا رفعت رأسى يقول الله ـ وهو أعلم ـ ما شأنك ؟ فأقول : يارب وعدتنى الشفاعة فشفعنِى فى أهل الجنة ، فيدخلون الجنة ، فيقول الله : قد شفعتك وقد أذنت لهم فى دخول الجنة .

وكان رسول الله ﷺ يقول : والذى نفسى بيده ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل كل رجل منهم على اثنتين وسبعين زوجة : سبعين مما ينشئ الله ـ عز وجل ـ واثنتين آدميتين من ولد آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله لعبادتهما الله فى الدنيا ، فيدخل على الأولى فى غرفة من ياقوتة على سرير من ذهب ، مكلل باللؤلؤ عليها سبعون زوجاً من سندس وإستبرق ، ثم إنه يضع يده بين كتفيها ثم ينظر إلى يده من صدرها ومن وراء ثيابها وجلدها ولحمها وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت، كبدها له مرآة ، وكبده لها مرآة .

فبينما هو عندها لا يملُّها ولا تملُّه ، ما يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يفتر ذكره ، وما تشتكى قبلها ، فبينما هو كذلك إذ نودى : إنا قد عرفنا أنك لا تَملُّ ولا تُمَلُّ ، إلا أنه لا منى ، ولا منية إلا أن لك أزواجاً غيرها ، فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة ، كلما أتى واحدة قالت له : والله ما أرى فى الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا فى الجنة شئ أحب الىَّ منك ، وإذا وقع أهل النار فى النار ، وقع فيها خلق من خلق ربك أوبقتهم أعمالهم ، فمنهم من تأخذ النار قدميه لا تجاوز ذلك ، ومنهم من تأخذه إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حقويه ، ومنهم من تأخذ جسده كله إلا وجهه حرم الله صورته عليها .

قال رسول الله ﷺ : فأقول : يارب شفعنى فيمن وقع فى النار من أمتى ، فيقول : أخرجوا من عرفتم ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم

أحد، ثم يأذن الله فى الشفاعة ، فلا يبق نبى ولا شهيد إلا شفع ، فيقول الله : أخرجوا من وجدتم فى قلبه زنة دينار إيماناً ، فيخرج أولئك حتى لا يبقى منهم أحد ، ثم يشفع الله فيقول : أخرجوا من وجدتم فى قلبه إيماناً ثلثى دينار ، ثم يقول : ثلث دينار ، ثم يقول : ربع دينار ، ثم يقول : قيراط ، ثم يقول : حبة من خردل ، فيخرج أولئك حتى لا يبق منهم أحد ، وحتى لا يبق فى النار من عمل لله خيراً قط ، ولا يبق أحد له شفاعة إلا شفع ، حتى إن إبليس يتطاول مما يرى من رحمة الله رجاء أن يشفع له.

ثم يقول : بقيت وأنا أرحم الراحمين ، فيدخل يده فى جهنم ، فيخرج منها مالا يحصيه غيره ، كأنهم حمم ، فيلقون على نهر يقال له نهر الحيوان ، فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ، فما يلى الشمس منها أخيضر ، وما يلى الظل منها أصيفر ، فينبتون كنبات الطراثيث حتى يكون أمثال الذر مكتوب فى رقابهم الجهنميون عتقاء الرحمن ، يعرفهم أهل الجنة بذلك الكتاب ، ما عملوا خيراً لله قط ، فيمكثون فى الجنة ما شاء الله وذلك الكتاب فى رقابهم ، ثم يقولون : ربنا امح عنا هذا الكتاب ، فيمحوه الله ـ عز وجل ـ ثم ذكره بطوله .

ثم قال : هذا حديث مشهور وهو غريب جداً ولبعضه شواهد فى الأحاديث المتفرقة وفى بعض ألفاظه نكارة ، تفرد به إسماعيل بن رافع قاص أهل المدينة ، وقد اختلف فيه ، فمنهم من وَثَّقه ومنهم من ضَعَّفه ونص على نكارة حديثه غير واحد من الأئمة كأحمد بن حنبل وأبى حاتم الرازى وعمرو بن على الفَلاَّس ومنهم من قال فيه هو متروك وقال ابن عدى : أحاديثه كلها فيها نظر إلا أنه يكتب حديثه فى جملة الضعفاء .

قلت : وقد اختلف عليه فى اسناد هذا الحديث على وجوه كثيرة قد أفردتها فى جزء على حدة وأما سياقه فغريب جداً ، ويقال إنه جمعه من أحاديث كثيرة وجعله سياقاً واحداً فأنكر عليه بسبب ذلك ، وسمعت شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزى يقول إنه رأى للوليد بن مسلم مصنفاً قد جمعه كالشواهد لبعض مفردات هذا الحديث فالله أعلم »

❀ ❀

متى الساعة ؟

وإيماننا بيوم القيامة يقتضى أن نؤمن بأن هذا اليوم من علوم الغيب التى لا يطلع عليها إلا الله ، و لا يعلم موعدها إلا هو سبحانه و تعالى : ﴿ وعنده مَفَاتحُ الغَيْبِ لا يعلمها إلاَّ هُوَ ﴾ (١) ولا يجوز لأحد مهما أوتى من العلم أن يتكهن بوقت حدوثها وموعد قيامها و قد خاطب الله ـ عز وجل ـ رسوله بقوله :

﴿ يَسْأَلونكَ عن السَّاعة أيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إنما علمها عند ربى لاَ يُجليها لَوقْتِهَا إلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فى السموات والأرض لاَ تأْتيكُمْ إلاَّ بَغْتَةً يسْأَلُونَكَ كأنَّكَ حَفيٌّ عنها قُلْ إنَّمَا علمها عِنْدَ اللهِ ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يعلمُونَ ﴾ (٢)

وروى الامام احمد فى مسنده عن بريدة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ ـ يقول : خمس لا يعلمها إلا الله ـ عز و جل ـ : ﴿ إنَّ اللهَ عنده علْمُ الساعة و ينزل الغَيْثَ و يعلَمُ ما فى الأرْحَامِ وما تدرى نفسٌ ماذَا تكسبُ غَدَاً وما تدرى نفسٌ بأىِّ أرضٍ تموتُ إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ ﴾ (٣)

فوقت الساعة لا يعلمه إلا الله ولم يطلع عليه نبى مرسل ولا ملك مقرب، ولو كان وراء علمه فائدة لأطلع الله عليه عبداً من عباده ، بل الحكمة فى إخفائه واستئثاره ـ عز وجل ـ بعلمه ، ولذا كان رسول الله ﷺ حريصا على صرف نظر أصحابه عن موعد القيامة إلى ما هو أهم من ذلك ، ألا وهو الاستعداد لها قبل نزولها .

ففى الصحيحين أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ فقال له الرسول ﷺ : « ويحك ، إن الساعة آتية فما أعددت

---

(١) الأنعام . ٥٩

(٢) الأعراف ١٨٧

(٣) لقمان ٣٤

لهـا ؟ قال : ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله ، فقال له رسول الله ﷺ : « المرء مع من أحب » فما فرح المسلمون بشئ فرحهم بهذا الحديث [1]

فَدَعْكَ إذن من : متى الساعة ، واسأل نفسك : ماذا أعددت لها ؟ فهى واقعة لا محالة ، والفطن الذكى من أخذ من دنياه لآخرته ، وقدم الزاد لنفسه ، وأنشد مع القائل :

تــزود مــن حياتــك للمعــاد	وقــم لله واجمع خــير زاد
ولا تــركن إلى الدنيـا كثـيراً	فــإن المـال يجمـع للنفاد
أتــرضى أن تكون رفيق قــوم	لهــم زاد وأنــت بغــير زاد

والحقيقة أن الساعة قريبة منا جميعاً ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعة تكونُ قَرِيباً ﴾ [2] فالقيامة لأحدنا تقوم بموته حيث ينتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة ، وهذا معنى حديث رسول الله ﷺ الذى رواه الامام مسلم فى صحيحه عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت : كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله ﷺ سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟ فينظر إلى أحدث انسان منهم فيقول :

« إن يَعِشْ هذا لم يدركه الهرم قامت عليكم ساعتكم »

قال ابن كثير : يعنى بذلك مَوْتَهُمْ الذى يفضى بهم إلى الحصول في برزخ الدار الاخرة . [3]

وإذا كان الله ـ عز وجل ـ قد استأثر بعلم الساعة ، فإنه سبحانه بَيَّنَ لنا أشراطها وعلاماتها وأعطانا أمارات تدل على قربها وتنذرنا دنو يومها، فقال تعالى :

﴿ فَهَلْ ينظرُونَ إلاَّ السَّاعةَ أنْ تأتيهم بَغْتَةً فقد جاءَ أشراطُهَا فأنَّى لهم

---

(١) تقديم تخريج الحديث
(٢) الأحزاب : ٦٣
(٣) ابن كثير : ٢ / ٢٧٢

إذَا جاءتهم ذِكْرَاهُمْ ﴾ [1]

وقال تعالى : ﴿ اقتربَتْ السَّاعَةُ وانشقَّ القمرُ ﴾ [2]

وقال : ﴿ أَتَى أمرُ اللهِ فَلا تستعجِلُوهُ ﴾ [3]

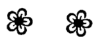
وقد بَيَّن لنا رسول الله ﷺ طرفاً من أشراط الساعة فى حديث جبريل، حيث قال ﷺ : « متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَةُ رَبَّتها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهم فى البنيان » [4]

وتعد بعثة رسول الله ﷺ علامة من علامات القيامة وأمارة على قربها، لانه خاتم الرسل الذى أكمل الله به الدين وأقام به الحجة على العالمين ، وقال تعالى عن بعثته :

﴿ هَذَا نذيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى * أَزِفَتْ الآزِفَةُ ﴾ [5]

قال الحسن البصرى : « بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة » ولهذا جاء فى أسمائه ﷺ أنه الحاشر الذى تحشر الناس على قدميه ، والعاقب الذى ليس بعده نبى .

وفى الصفحات القادمة سوف نعرض لأشهر علامات القيامة التى ثبتت من خلال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لعلها تذكرنا الآخرة وتجعلنا على بصيرة من أمرنا .



---

(١) محمد : ١٨
(٢) القمر : ١
(٣) النحل : ١
(٤) فتح البارى : ١ / ١٤٠
(٥) النجم : ٥٦ ، ٥٧

الفصل الثانى
أمارات الساعة

الدخـــان :

وهو آية من آيات الله ، وأمارة من أمارات القيامة ، ونذير بين يدى الساعة ، حيث يبعث الله عز وجل دخاناً يملأ ما بين السماء والأرض .

قال تعالى : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأتِى السَّمَاءُ بِدخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عذابٌ أليمٌ ﴾ (١)

وقال رسول الله ﷺ :

« لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا » (٢)

وجاء تفسير سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ للآية السابقة على قولين :

الأول : يقول إن آية الدخان قد حدثت فعلاً وذلك حين دعا رسول الله ﷺ على أهل مكة المشركين ، وهو قول ابن مسعود ، ووافقه فيه جماعة من السلف كمجاهد وأبى العالية وإبراهيم النخعى والضحاك وعطية العوفى (٣)

فقد روى البخارى عن مسروق قال :

---

(١) الدخان : ١١

(٢) رواه مسلم فى كتاب الفتن ـ باب فى الآيات التى تكون قبل الساعة : ٨ / ١٧٩ وأبو داود فى كتاب الملاحم ـ باب أمارات الساعة (حديث : ٤٢٨٩) : ١١ / ٤٢٦ ـ ٤٣٠ ـ وابن ماجه فى كتاب الفتن باب الآيات (حديث ٤٠٥٥) ٢ / ١٣٤٧ ـ والامام أحمد فى مسنده : ٦/٤

(٣) انظر ابن كثير ٣ / ١٣٨

« بينما رجل يحدث فى كندة ، فقال : يجئ دخان يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين وأبصارهم ، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، ففزعنا ، فأتيت ابن مسعود وكان متكئاً فغضب فجلس ، فقال : من علم فليقل ، ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم ، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم : لا أعلم ، فإن الله قال لنبيه : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عليه مِنْ أجرٍ ومَا أَنَا مِنَ المتكلِّفِينَ ﴾ وإن قريشاً أبطأوا عن الاسلام فدعا عليهم النبى ﷺ فقال : اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام ، ويرى الرجل ما بين السماء والأرض كهيئة الدخان ، فجاءه أبو سفيان ، فقال : يا محمد ، جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله فقرأ : ﴿ فَارْتَقِبْ يوم تأتى السماءُ بدخَانٍ مُبين ـ إلى قوله ـ عَائِدُونَ ﴾ أفيكشف عنهم عذاب الآخرة إذا جاء ثم عادوا إلى كفرهم ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَومَ نبطشُ البطشـةَ الكبْرى ﴾ يوم بـدر و «لزاماً» يوم بـدر و﴿ الم غُلِبَتْ الرومُ ـ إلى ـ سَيَغْلِبونَ ﴾ والروم قد مضى .[1]

وفى رواية للبخارى قال : « خمس قد مضين : اللزام ، والروم ، والبطشة ، والقمر ، والدخان »[2]

القول الآخر :

إن آية الدخان لم تمض بعد ، بل هى باقية علامة من علامات القيامة التى لم تحدث بعد ، يقول صاحب فتح البارى :

« وهذا الذى أنكره ابن مسعود قد جاء عن على ، فأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم من طريق الحارث عن علي قال : « آية الدخان لم تمض بعد ، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، وينفخ الكافر حتى ينفد » ... ويؤيد كون آية الدخان لم تمض ما أخرجه مسلم من حديث أبى شريحة رفعه : «لاتقوم الساعة حتى تروا عشر آيات ... الحديث »[3]

---

(١) انظر فتح البارى : ٨ / ٢٧٠

(٢) فتح البارى : ٨ / ٤٣٧ (باب يوم نبطش البطشة الكبرى)

(٣) فتح البارى : ٨ / ٤٣٦ (باب ربنا اكشف عنا العذاب ..)

وهذا القول يختاره الحافظ ابن كثير فيقول :

« روى ابن جرير عن أبى مليكة قال : غدوت على ابن عباس رضى الله عنهما ذات يوم ، فقال : ما نمت الليلة حتى أصبحت ، قلت : لم ؟ قال : قالوا : طلع الكوكب ذو الذنب ، فخشيت أن يكون الدخان قد طرق ، فما نمت حتى أصبحت » وهذا اسناد صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما حبر الأمة ، وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين من الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التى أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ أى يتغشاهم ويعميهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه : ﴿ يَغْشَى النَّاسَ ﴾ [1]



(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ١٣٩

نزول عيسى ـ عليه السلام

ومن علامات القيامة وأشراطها نزول المسيح ـ عليه السلام ـ من السماء إلى الأرض ، يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ويحكم فيهم بشريعة الاسلام ، وقد قال ـ تعالى ـ في حقه :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إنَّا قتلنَا المسيحَ عيسى ابنَ مريم رسولَ اللهِ وما قتلُوهُ وما صلبُوهُ ولكنْ شُبِّهَ لهم وإنَّ الذينَ اختلفُوا فيه لَفِي شَكٍّ منه ما لهم به منْ علم إلاَّ اتباعَ الظنِّ وما قتلوه يَقيناً . بَلْ رفعَهُ اللهُ إليهِ وكانَ اللهُ عَزيزاً حكيماً . وإنْ منْ أهلِ الكتابِ إلاَّ لَيُؤمِننَّ به قَبْلَ مَوْتِهِ ويوم القيامةِ يكونُ عليهم شهيداً ﴾ [1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً له من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة : اقرؤا إن شئتم : ﴿ وإنْ منْ أهلِ الكتابِ إلاَّ لَيُؤْمننَّ به قبل مَوْتِهِ ويومَ القيامةِ يكون عليهم شَهيداً ﴾ [2]

« والحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء : الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه ، فبيَّن الله تعالى كذبهم ، وأنه الذي يقتلهم ، أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها . وقيل إنه دعا الله لما رأى صفة محمد وأمته : أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجدداً لأمر الاسلام فيوافق خروج الدجال فيقتله ، والأول أوجه »

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني أَوْلَى الناس بعيسى ابن مريم ، لأنه لم يكن نبي بيني وبينه ، وإنه نازل ، فإذا رأيتموه

---

(١) النساء : ١٥٧ ـ ١٥٩ .

(٢) ابن كثير : ١ / ٥٧٨ ، فتح الباري : ٦ / ٥٦٦ وما بعدها .

فاعرفوه : رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، عليه ثوبان ممصران ، كأن رأسه يقطر إن لم يصبه بلل : فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الإسلام ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الاسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال ، ثم تقع الأمانة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الابل ، والنمار مع البقر والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم ، فيمكث أربعين سنة ، ثم يتوفى ، ويصلي عليه المسلمون »[1]

وفي بيان أوصاف المسيح ـ عليه السلام ـ يقول الرسول ﷺ : «وأراني الليلة عند الكعبة في المنام ، فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من أدم الرجال ، تضرب لمته بين منكبيه ، رَجِلُ الشعر ، يقطر رأسه ماءً ، واضعاً يديه على منكبي رجلين يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا المسيح بن مريم ، ثم رأيت رجلاً وراءه جعداً قططاً أعور عين اليمنى ، كأشبه من رأيت بابن قطن ، واضعاً يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت، فقلت من هذا ؟ قالوا : المسيح الدجال »[2]

---

(١) رواه الامام احمد في مسنده : ٢ / ٤٠٦ ومعنى (إخوة لعلات) أي هم إخوة من أب واحد وأمهاتهم شتى ، والعلة هي الضرة . وقوله : (إني أولى الناس بعيسى بن مريم) أي أخص الناس به وأقربهم إليه ، لأنه بَشَّر بأنه يأتي بعده ، و « المربوع » الوسيط : أي هو وسط بين الحمرة والبياض و« عليه ثوبان ممصران » : الثوب الممصر : هو المصبوغ بحمرة خفيفة و « تقع الأمانة على الأرض» : أي الأمان والاطمئنان .

(٢) قوله ﷺ : « وأراني » ذكر بلفظ المضارع مبالغة في استحضار صورة الخيال و «آدم » يعني : أسمر و « لمته » أي شعر رأسه ، ويقال له إذا جاوز شحمة الأذنين وألم بالمنكبين (لمة) ، وإذا جاوزت المنكبين فهي (جمة) ، و إذا قصرت عنهما فهي (وفرة) ، و « رجل الشعر » بفتح الراء وكسر الجيم : أي قد سرحه ودهنه و « قططاً » المراد شدة جعودة الشعر ، ويطلق في وصف الرجل ويراد به الذم ، يقال : جعد اليدين وجعد الاصابع : أي بخيل ، و « ابن قطن » رجل من خزاعة هلك في الجاهلية .

فتح الباري : ٦ / ٥٥٠ (حديث : ٣٤٤٠)

خروج المسيح الدجال

ومن علامات القيامة خروج المسيح الدجال ، وهو رجل من بنى آدم خلقه الله تعالى ليكون فتنة للناس ومحنة فى آخر الزمان ، فيضل الله به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين .

وإذا كان القرآن الكريم لم يذكر شيئاً عن الدجال ، ففى سنة رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة تدل عليه وتبين وقت خروجه وصفته وما يعم الناس من فتنة فى زمانه ، كما تدلنا السنة المطهرة على ظهور كذابين ودجالين كثيرين يكونون كالمقدمة بين يدى الدجال ، وهو خاتمهم قبحهم الله جميعاً.

ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يُبْعَثَ دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله »

والمسيح الدجال الذى هو فتنة للناس فى آخر الزمان ، وعلامة من علامات القيامة مذكور فى أحاديث كثيرة نكتفى منها بذكر حديثين يوضحان ما غمض من شخصية هذا اللعين ، ويجمعان ما تفرق عنه فى أحاديث كثيرة ، لنكون على علم به وحذر من فتنته ، وقانا الله شرها .

قال الامام مسلم : حدثنى عامر بن شراحبيل الشعبى أنه سأل فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس ، وكانت من المهاجرات الأُوَل ، فقال : حدثينى حديثاً سمعتيه من رسول الله ﷺ لا تسنديه إلى أحد غيره ، فقالت :

سمعت نداء المنادى ، منادى رسول الله ﷺ ينادى : الصلاة جامعة ، فخرجت إلى المسجد ، فصليت مع رسول الله ﷺ وكنت فى صف النساء اللاتى يلين ظهور القوم ، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، جلس على المنبر وهو يضحك ، فقال :

« ليلزم كل إنسان مُصَلاَّه » ثم قال : « أتدرون لم جمعتكم ؟ » قالوا :

الله ورسوله أعلم ، قال : « والله إنى ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة ، ولكن جمعتكم لأن تميماً الدارى كان رجلاً نصرانياً ، فجاء فبايع وأسلم ، وحدثنى حديثاً وافق الذى كنت أحدثكم عن المسيح الدجال ، حدثنى : أنه ركب فى سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم ، وجذام ، فلعب بهم الموج شهراً فى البحر ، ثم أرفئوا إلى جزيرة فى البحر حين مغرب الشمس ، فجلس فى أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة ، فلقيتهم دابة أهلب ، كثيرة الشعر ، لا يدرون ما قُبُلُه من دبره من كثرة الشعر ، فقالوا : ويلك ما أنت؟ فقالت : أنا الجساسة ، قالوا : وما الجساسة ؟ قالت : أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل فى الدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق قال : لما سَمَّتْ لنا رجلاً ، فرقنا منها أن تكون شيطانة ، قال : فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير ، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً ، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد ، قلنا : ويلك ما أنت ، قال : قد قدرتم على خبرى ، فأخبرونى ما أنتم ؟ قالوا : نحن أناس من العرب ، ركبنا فى سفينة بحرية ، فصادفنا البحر حين اغتلم ، فلعب بنا الموج شهراً ، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه ، فجلسنا فى أقربها ، فدخلنا الجزيرة ، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لاندرى قبله من دبره من كثرة الشعر ، فقلنا : ويلك ما أنت : فقالت : أنا الجساسة ، قلنا : وما الجساسة ؟ قالت : اعمدوا إلى هذا الرجل بالدير ، فإنه إلى خبركم بالأشواق ، فأقبلنا إليك سراعاً ، وفزعنا منها ، ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال : أخبرونى عن نخل بيسان ؟ فقلنا : عن أى شأنها تستخبر؟ قال : أسألكم عن نخلها ، هل يثمر ؟ قلنا : نعم ، قال : أما إنه يوشك أن لا يثمر ، قال : أخبرونى عن بحيرة طبرية ؟ قلنا : عن أى شأنها تستخبر ؟ قال : هل فيها ماء ؟ قلنا : هى كثيرة الماء ، قال إن ماءها يوشك أن يذهب ، قال : أخبروني عن عين زغر ؟ قالوا : عن أى شأنها تستخبر ؟ قال : هل فى العين ماء ؟ وهل يزرع أهلها بماء العين ؟ قلنا له : نعم هى كثيرة الماء ، وأهلها يزرعون من مائها ، قال : أخبرونى عن نبى الأميين ، ما فعل ؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب ، قال :

أقاتلته العرب ؟ قلنا : نعم ، قال : كيف صنع بهم ؟ فأخبرناه : أنه قد ظهر على من يليه من العرب ، وأطاعوه ، قال لهم : قد كان ذلك ؟ قلنا : نعم ، قال : أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه ، وإنى أخبركم عنى : أنا المسيح ، وإنى أوشك أن يؤذن لى فى الخروج فأخرج ، فأسير فى الارض ، فلا أدع قرية إلا هبطتها فى أربعين ليلة ، غير مكة وطيبة ، فهما محرمتان علىَّ ، كلتاهما كلما أردت أن أدخل واحدة أو إحداهما استقبلنى ملك بيده السيف صلتا يصدنى عنها ، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها ، قالت : قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته فى المنبر : هذه طيبة هذه طيبة هذه طيبة _ يعنى المدينة _ ألا هل كنت حدثتكم ذلك ؟ فقال الناس : نعم ، فإنه أعجبنى حديث تميم فإنه وافق الذى كنت أحدثكم عنه ، وعن المدينة ومكة ، إلا أنه فى بحر الشام ، أو فى بحر اليمن ، لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ، ما هو من قبل المشرق ما هو ، وأومأ بيده إلى المشرق ، قالت فحفظت هذا من رسول الله ﷺ »[1]

والحديث الآخر الذى نسوقه عن الدجال : ما أخرجه ابن ماجه فى سننه عن أبى أمامة الباهلى قال : خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الفتن باب فى خروج الدجال ومكثه فى الأرض ٨ / ٢٠٣ إلى ٢٠٥ وأبو داود مختصراً ومفرقاً فى كتاب الملاحم باب خبر الجساسة (حديث ٤٣٠٢ _ ٤٣٠٦) ١١ / ٤٦٩ _ ٤٧٦ . والترمذى مختصراً فى أبواب الفتن (حديث ٢٢٥٤) ٦ / ٥٢٨ ، ٥٠٣ ، وابن ماجه مختصراً فى كتاب الفتن باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم وخروج يأجوج ومأجوج . (حديث . ٤٠٧٤) . ٢ / ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ وانظر مسند الإمام أحمد : ٦ / ٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤١٦ _ ٤١٨ ، وقوله « أرفئوا إلى جزيرة » أى التجئوا إليها ، « أقرب السفينة » جمع قارب وهى سفينة صغيرة تكون مع الكبيرة للتصرف فيها وقت الحاجة ، « دابة أهلب » الهلب الشعر ، وقيل ما غلظ من الشعر ، وقيل : ما كثر من شعر الذنب ، « الجساسة » سميت بذلك لأنها تتجسس الأخبار للدجال ، « اغتلم البحر » أى هاج وجاوز حده المعتاد ، « بيسان » قرية بالشام «عين زغر » بلدة فى الجانب القبلى من الشام ، « مخصرته » هى الآلة التى يتكىء عليها مثل عصا أو عكاز .

انظر علامات يوم القيامة : ص٧٦

خطبته حديثاً حدثناه عن الدجال وحذرناه ، فكان من قوله أن قال :

« لم تكن فتنة فى الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم عليه السلام أعظم من فتنة الدجال ، و إن الله لم يبعث نبياً إلا حذر أمته الدجال ، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة ، فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم ، فأنا حجيج كل مسلم ، و إن يخرج من بعدى ، فكلٌ حجيج نفسه ، وإن الله خليفتى على كل مسلم ، وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق فيبعث يميناً ويبعث شمالاً ، ألا يا عباد الله : أيها الناس فاثبتوا ، وإنى سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبى قبلى : إنه يبدأ فيقول : أنا نبى فلا نبى بعدى ، ثم يثنى فيقول : أنا ربكم ، ولا ترون ربكم حتى تموتوا ، وإنه أعور وإن ربكم ليس بأعور ، وإنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب أو غير كاتب ، وإن من فتنته أن معه جنة وناراً ، فناره جنة وجنته نار ، فمن ابتلى بناره فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً ، كما كانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، وإن من فتنته أن يقول لأعرابى : أرأيت إن بعثت أمك وأباك ، أتشهد أنى ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطان فى صورة أبيه وأمه فيقولان يابنى اتبعه فإنه ربك ، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فينشرها بالمنشار حتى تلقى شقتين ثم يقول انظر إلى عبدى هذا فإنى أبعثه الآن ، ثم يزعم أن له رباً غيرى ، فيبعثه الله فيقول له الخبيث : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، وأنت عدو الله الدجال ، والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك منى اليوم » قال أبو الحسن الطنافسى :

فحدثنا المحاربى حدثنا عبيد الله بن الوليد الرصافى عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ذلك الرجل أرفع أمتى درجة فى الجنة» قال : قال أبو سعيد : والله ما كنا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب حتى مضى لسبيله .

قال المحاربى : ثم رجعنا إلى حديث أبى رافع قال : « وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت ، وإن

من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت ، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت ، حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأضمره خواصر ، وأدره ضروعاً ، وإنه لا يبقى شئ من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة ، فإنه لا يأتيهما من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة بالسيوف صلتة حتى ينزل عند الظريب الاحمر عند منقطع السبخة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، فينفى الخبث منها كما ينفى الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص .

فقالت أم شريك بنت أبى العكر : يارسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل وَجُلُّهم يومئذ ببيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح ، فبينما إمامهم قد تقدم يصلى بهم الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم عليه السلام الصبح ، فرجع ذلك الامام يمشى القهقرى ليتقدم عيسى عليه السلام فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول : تقدم فَصَلِّ فإنها لك أقيمت ، فيصلى بهم إمامهم ، فإذا انصرف قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتح وراءه الدجال معه سبعون ألف يهودى كلهم ذو سيف محلى وساج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح فى الماء ، وينطلق هارباً ، فيقول عيسى : إن لى فيك ضربة لن تسبقنى بها فيدركه عند باب اللد الشرقى فيقتله ، ويهزم الله اليهود ، فلا يبقى شئ مما خلق الله تعالى يتوارى به يهودى إلا أنطق الله ذلك الشئ ، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة ـ إلا الغرقدة فإنها من شجرهم لا تنطق ـ إلا قال يا عبد الله المسلم : هذا يهودى فتعال اقتله ، قال رسول الله ﷺ : وإن أيامه أربعون سنة ، السنة كنصف السنة ، والسنة كالشهر والشهر كالجمعة ، وآخر أيامه كالشررة ، يصبح أحدكم على باب المدينة فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسه فقيل له كيف نصلى يا نبى الله فى تلك الأيام القصار ؟ قال : تقدرون الصلاة كما تقدرون فى هذه الأيام الطوال ثم صلوا » .

قال رسول الله ﷺ : فيكون عيسى بن مريم فى أمتى حكماً عدلاً ،

وإماماً مقسطاً ، يدق الصليب ، ويذبح الخنزير ، ويضع الجزية ، ويترك الصدقة ، فلا يسعى على شاة ولا بعير ، وترتفع الشحناء والتباغض ، وتنزع حمة كل ذات حمة ، حتى يُدْخِلَ الوليد يده فى فِىِّ الحية فلا تضره ، وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها ، ويكون الذئب فى الغنم كأنه كلبها ، وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء ، وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله ، وتضع الحرب أوزارها ، وتسلب قريش ملكها وتكون الأرض لها نور الفضة وتنبت نباتها كعهد آدم ، حتى يجتمع النفر على القطف من العنب فيشبعهم ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم ، ويكون الثور بكذا وكذا من المال ، ويكون الفرس بالدريهمات قيل يارسول الله ، وما يرخص الفرس ؟ قال : لا تركب لحرب أبداً قيل له : فما يغلى الثور ؟ قال : يحرث الأرض كلها :

وإن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد يصيب الناس فيها جوع شديد ، ويأمر الله السماء فى السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها ، ويأمر الأرض فتحبس ثلث نباتها ، ثم يأمر الله السماء فى السنة الثانية فتحبس ثلثى مطرها ، ويأمر الأرض فتحبس ثلثى نباتها ، ثم يأمر الله عز وجل السماء فى السنه الثالثة فتحبس مطرها كله ، فلا تقطر قطرة ، ويأمر الأرض أن تحبس نباتها كله فلا تنبت خضراء ، فلا تبقى ذات ظلف إلا هلكت إلا ما شاء الله ، قيل : فما يعيش الناس فى ذلك الزمان ؟ قال : التهليل والتكبير والتسبيح والتحميد ، ويجرى ذلك عليهم مجرى الطعام »[1]

---

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب الفتن باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم ٥٠٠ (حديث ٤٠٧٧) ٢ / ١٣٥٩ ـ ١٣٦٣ ، وقوله « السائمة » كل ابل ترسل للمرعى ولا تعلف ، « النقب » هو طريق بين جبلين ، « بالسيوف مصلتة » أى مجردة من أغمادها . « الظريب » الجبال الصغار ، « لسبخة» هى الأرض التى تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر « ترجف المدينة » تتزلزل وتضطرب ، «ساج» هو الطيلسان الأخضر ، «الغرقدة» هى نوع من شجر الشوك ، «يدق الصليب » أى يكسره بحيث لا يبقى من جنس الصليب شئ ، « يذبح الخنزير » أى يقتله بحيث لا يوجد فى الأرض ليأكله أحد ، والحاصل من دق الصليب وذبح الخنزير : إبطال دين النصارى ، «يترك الصدقة أى =

قال ابن ماجه : سمعت أبا الحسن الطنافسي يقول : سمعت عبد الرحمن المحاربي يقول : ينبغي أن يُدفع هذا الحديث إلى المؤدب حتى يعلمه الصبيان في الكُتَّاب .

ويقول الحافظ ابن كثير رحمه الله في بيانه للدجال :

« وأما الدجال الأكبر ، فهو المذكور في حديث فاطمة بنت قيس الذي روته عن رسول الله ﷺ عن تميم الداري ، وفيه قصة الجساسة ، ثم يؤذن له في الخروج في آخر الزمان ، بعد فتح المسلمين مدينة الروم المسماة بقسطنطينية ، فيكون بدء ظهوره من أصبهان من حارة بها يقال لها اليهودية ، وينصره من أهلها سبعون ألف يهودي ، عليهم الأسلحة والتيجان ، وهي الطيالسة الخضر ، وكذلك ينصره سبعون ألفاً من التتار، وخلق من أهل خراسان ، فيظهر أولاً في صورة ملك من الملوك الجبابرة ثم يدعي النبوة ، ثم يدعي الربوبية ، فيتبعه على ذلك الجهلة من بني آدم والطغام من الرعاع ، والعوام ، ويخالفه ، ويرد عليه من هداه الله من الصالحين ، وحزب الله المتقين ويتدنى فيأخذ البلاد بلداً بلدا ، وحصناً حصنا ، وإقليماً إقليما ، وكورة كورة ، ولا يبقى بلد من البلدان إلا وطئه بخيله ورجله ، غير مكة والمدينة ، ومدة مقامه في الأرض أربعون يوماً : يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيام الناس هذه ، ومعدل ذلك سنة وشهران ونصف ، وقد خلق الله على يديه خوارق كثيرة يضل بها من يشاء من خلقه ، ويثبت معها المؤمنون فيزدادون إيماناً مع إيمانهم وهدى إلى هداهم ، ويكون نزول عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسيح الهدى في أيام المسيح الدجال مسيح الضلالة ، على المنارة الشرقية بدمشق ، فيجتمع عليه المؤمنون ويلتف معه عباد الله المتقون ، فيسير بهم المسيح عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ

== الزكاة لكثرة الأموال ، « تنزع حمة كل ذات حمة » الحمة : السم . انظر علامات يوم القيامة ص ٩١ هامش

وقال ابن كثير : ١ / ٥٧٩ : هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه ولبعضه شواهد من أحاديث أخر .

قاصداً نحو الدجال ، وقد توجه نحو بيت المقدس ، فيدركه عند عقبة أفيق، فيهزم منه الدجال ، فيلحقه عند باب مدينة لد ، فيقتله بحربته وهو داخل إليها ، ويقول له : إن لى فيك ضربة لن تفوتنى ، وإذا واجهه الدجال ينماع كما ينماع الملح فى الماء ، فيتداركه فيقتله بالحربة الحربية بباب لد ، فتكون وفاته هناك لعنه الله [١]

وبعد أن وقفنا على خبر هذا الدجال اللعين ، علينا أن نستعيذ بالله من فتنته وندعو الله السلامة والنجاة ، كما علمنا رسولنا ﷺ حيث جاء فى دعائه : « اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » [٢] فاللهم احفظنا بما تحفظ به عبادك الصالحين ، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .



---

(١) انظر علامات يوم القيامة ص١٠٤ وقوله « باب لد » بلدة قريبة من بيت المقدس وهى الآن تعرف باسم « مدينة اللد » فى فلسطين المحتلة .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الجنائز ـ باب التعوذ من عذاب القبر : ٢ / ١٢٤ ومسلم فى كتاب المساجد ـ باب ما يستعاذ منه فى الصلاة . ٢ / ٩٣ وأبو داود فى كتاب الصلاة ـ باب ما يقول بعد التشهد (حديث . ٩٦٨ ـ ٩٦٩) : ٢ / ٢٧٣ ـ ٢٧٥ والترمذى فى أبواب الدعوات (حديث . ٣٥٥٩) ٩ / ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، وابن ماجه فى كتاب الدعاء ـ باب ما تعوذ منه رسول الله ﷺ (حديث ٣٨٤٠) ٢ / ١٢٦٢ والنسائي فى كتاب الاستعاذة ـ باب الاستعاذة من عذاب جهنم وشر المسيح الدجال ٨ / ٣٧٥ وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٨٨

خروج يأجوج ومأجوج

ومن علامات الساعة خروج يأجوج ومأجوج من وراء السد الذى بناه « ذو القرنين » وذلك فى أيام عيسى بن مريم والدجال ، ويكون دعاء عيسى ابن مريم عليهم إيذاناً بهلاكهم جميعاً .

وقد وردت هذه القصة فى سورة (الكهف) فقال تعالى : عن ذى القرنين :

﴿ ثُمَّ أتبَع سَبَباً * حتَّى إذَا بلغَ بين السَّدَّيْن وجد منْ دُونهمَا قَوْماً لا يكادُونَ يفقهُونَ قَوْلاً * قالوا ياذَا القَرْنين إنَّ يأجوجَ ومأجوجَ مفسدُونَ فى الأرض فَهَلْ نجعلُ لك خَرْجاً على أَنْ تجعلَ بيننا وبينهم سَدّاً * قَالَ ما مكنِّى فيه ربى خيرٌ فأعينونى بقُوَّة أجعلُ بينكم وبينهم ردْماً * آتونى زُبَرَ الحديد حتَّى إذَا سَاوَى بين الصَّدَفَيْنِ قال انفخُوا حتى إذا جعلَه نَاراً قال آتُونى أُفْرِغْ عليه قطْراً * فَما اسطَاعوا أَنْ يظهرُوهُ وَمَا استطاعُوا له نَقَباً * قال هذا رحمةٌ من ربى فإذا جَاءَ وَعْدُ ربى جعلهَ دَكَّاء وكان وَعْدُ ربى حَقّاً ﴾ [1]

وقال تعالى فى سورة الأنبياء :

﴿ حَتَّى إذَا فُتحَتْ يأجوجُ ومأجوجُ وهم من كُلِّ حَدَبٍ ينسلُونَ * واقترب الوعدُ الحقُّ .. ﴾ [2]

ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام وهذا ثابت فى الصحيحين ، فقد أخرج البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : أَخْرِج بعث النار . قال : وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فعنده يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن

---

(١) الكهف ٩٢ _ ٩٨

(٢) الأنبياء : ٩٦ _ ٩٧

عذاب الله شديد ، قالوا : يا رسول الله ، وأيُّنَا ذلك الواحد ؟ قال : أبشروا ، فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف ، ثم قال : والذى نفسى بيده ، إنى أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، فكبرنا ، فقال : أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، فقال : أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ، فكبرنا ، فقال : ما أنتم فى الناس إلا كالشعرة السوداء فى جلد ثور أبيض ، أو كشعرة بيضاء فى جلد ثور أسود »[1]

وفى مسند الإمام أحمد ، عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « ولد نوح ثلاثة : سام أبو العرب ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك »

قال بعض العلماء : هؤلاء ـ أى يأجوج ومأجوج ـ من نسل يافث أبى الترك ، وقال إنما سمى هؤلاء ـ الأتراك ـ تركاً : لأنهم تُرِكُوا من وراء السد من هذه الجهة ـ أى جهتنا نحن ـ وإلا فهم أقرباء يأجوج ومأجوج، ولكن كان فى هؤلاء بغى وفساد وجراءة .[2]

وفى سنة رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة تدل على أن يأجوج ومأجوج أمتان كبيرتان : يأجوج أمة ومأجوج أمة ، وهما كثيرتا التناسل والتكاثر، فلا يموت أحدهم حتى يترك ألفاً من نسله ، وأنهم وراء السد العظيم المنيع الذى بناه ذو القرنين يحاولون حفره والخروج منه ، وما هم بخارجين إلا أن يشاء الله .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : «إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم ، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه كأشد ما كان ، حتى إذا بلغت مدتهم ، وأراد الله عز وجل أن يبعثهم إلى الناس، حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس ، قال الذى عليهم : ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله ، ويستثنى : فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس ، فينشفون المياه ،

---

(١) فتح البارى : ٦ / ٤٤٠ ـ باب قصة يأجوج ومأجوج ـ حديث : (٣٣٤٨)
(٢) انظر تفسير ابن كثير : ٣ / ١٠٤

ويتحصن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع وعليها كهيئة الدم ، فيقولون : قهرنا أهل الأرض ، وعلونا أهل السماء ، فيبعث الله إليهم نغفاً فى أقفائهم ، فيقتلهم بها » قال رسول الله ﷺ « والذى نفس محمد بيده ، إن دواب الأرض لتسمن ، وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم »[1]

* * * *

---

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده : ٢ / ٥١٠ ، ٥١١ ـ والترمذى فى أبواب التفسير ـ سورة الكهف : (حديث : ٥١٦٠) : ٨ / ٥٩٧ ـ ٥٩٩ ، وابن ماجه فى كتاب الفتن ـ باب فتنة الدجال وخروج عيسى بن مريم : (حديث . ٤٠٨٠) . ٢ / ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ .

وقوله : « يرون شعاع الشمس » أى من الموضع الذى حفروه ، « الذى عليهم » أى أميرهم الذى يعملون تحت إمرته ، « بلغت مدتهم » أى المدة التى قدرها الله لهم ، و « يستثنى » أى يقول : إن شاء الله ، « نغفاً » هو دود يكون فى أنوف الابل والغنم ، واحدته : نغفة ، « تشكر » يقال : شكرت الناقة · أى امتلأ ضرعها لبناً والدابة سمنت .

خروج الدابة التى تكلم الناس

ومن علامات القيامة خروج دابة من الأرض تكلم الناس وتخاطبهم ، وتمييز المؤمن من الكافر ، وهى المذكورة فى قوله تعالى :

﴿ وإِذَا وَقَع القولُ عليهم أخرجنَا لهم دابةً من الأرضِ تكلمهم أنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنَا لا يُوقِنُون ﴾ [1]

ويقول ابن كثير ـ رحمه الله فى تفسيره :

« هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يخرج الله لهم دابة من الأرض ، قيل من مكة وقيل من غيرها ، فتكلم الناس وتخاطبهم مخاطبة .. » [2]

وقد ورد فى ذكر الدابة أحاديث كثيرة نذكر منها عن طلحة رضى الله عنه قال : ذكر رسول الله ﷺ الدابة ، فقال :

« لها ثلاث خرجات من الدهر ، فتخرج خرجة من أقصى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية ـ يعنى مكة ـ ثم تكمن زمناً طويلاً ، ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك ، فيعلو ذكرها فى أهل البادية ، ويدخل ذكرها القرية ـ يعنى مكة ـ قال رسول الله ﷺ : ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة ، وأكرمها : المسجد الحرام . لم يرعهم إلا وهى تدنو بين الركن والمقام ، تنفض عن رأسها التراب فَارْفَضَّ الناس عنها شتى ومعاً ، وبقيت عصابة من المؤمنين ، وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله فبدأت بهم فجلت وجوههم حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى ، وولت فى الأرض لا يدركها طالب ، ولا ينجو منها هارب ، حتى إن الرجل ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه ، فتقول : يا فلان ، الآن تصلى فيقبل عليها فتسمه فى وجهه ، ثم تنطلق ، ويشترك الناس فى الأموال ويصطحبون فى الأمصار يعرف المؤمن من الكافر ، حتى إن المؤمن ليقول : يا كافر اقضنى حقى ،

---

(١) الشعراء : ٨٢

(٢) تفسير ابن كثير : ٣ / ٣٧٤

وحتى إن الكافر ليقول يا مؤمن اقضنى حقى »[(١)]

وروى أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ـ عليهما السلام ـ فتخطم أنف الكافر بالعصا ، وتجلى وجه المؤمن بالخاتم ، حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر »[(٢)]

وقد ذهب الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى أن خروج الدابة يأتى بعد الدجال ونزول ابن مريم ـ عليه السلام ـ وخروج يأجوج ومأجوج ، فقد أورد فى كتابه « علامات يوم القيامة » ما رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو قال :حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أَنْسَهُ بعد ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحا ، فَأيتهما كانت قبل صاحبتها ، فالأخرى على أثرها قريباً »[(٣)]

ثم قال ابن كثير : « أى أول الآيات التى ليست مألوفة ، وإن كان الدجال ، ونزول عيسى عليه الصلاة والسلام من السماء قبل ذلك ، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج ، فكل ذلك أمور مألوفة لأنهم بشر ، فأما خروج الدابة على شكل غير مألوف ومخاطبتها للناس ، ووسمها إياهم بالإيمان والكفر ، فأمر خارج عن مجارى العادات ، وذلك أول الآيات الأرضية ، كما أن طلوع الشمس من مغربها على خلاف عادتها المألوفة أول الآيات السماوية[(٤)]

---

(١) رواه أبو داود ، ومعنى : « تسمه فى وجهه » أى تترك على وجهه أثراً وعلامة .

(٢) رواه أبو داود ، وابن ماجه ، والامام أحمد إلا أنه قال : « فتخطم أنف الكافر بالخاتم ، وتجلو وجه المؤمن بالعصا » ومعنى « تخطم أنف الكافر » يقال : خطم أنف فلان : أى ألصق بها عاراً ظاهراً ، « الخوان » ما يؤكل عليه ، والمقصود أن الدابة تظهر المؤمن من الكافر .

(٣) رواه مسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب فى خروج الدجال ومكثه فى الأرض : ٢٠٢/٨

(٤) انظر علامات يوم القيامة : ١٢٢ ـ ١٢٣

طلوع الشمس من المغرب

ومن علامات يوم القيامة : طلوع الشمس من المغرب ، ويكون ذلك إيذاناً بانقلاب وتغيير نظام العالم العلوى ، وينتهى ذلك بقيام الساعة ، نسأل الله السلامة والنجاة . وقد ورد ذكر هذه الآية فى قوله تعالى :

﴿ هَلْ ينظرُونَ إلاَّ أَنْ تأتيهم الملائكةُ أَوْ يأتى ربُّكَ أَوْ يأتىَ بَعْضُ آيات ربك يَوْمَ يأتى بعضُ آيات ربِّكَ لا ينفعُ نَفْسَاً إيمانُهَا لم تكُنْ آمنتْ من قَبْلُ أو كسبتْ فى إيمانها خَيْراً قُلِ انتظرُوا إنَّا مُنتظِرُونَ ﴾ (١)

قال الامام البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا أبو زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها ، فذلك حين ﴿لاَ يَنْفَعُ نَفساً إِيمَانُهَا لم تَكُنْ آمنتْ مِنْ قَبْلُ﴾ (٢)

ومعنى الآية الكريمة : أنه بعد طلوع الشمس من المغرب وتغيير نظام الكون المعتاد إيذاناً بقيامة الساعة ، عندها لا ينفع الايمان لمن لم يؤمن من قبل ، ولا ينفع العمل الصالح لمن قصر فيه من قبل ، فقد فات أوان العمل وجاء وعد الله الحق ، ونكشف الغطاء عن أعين المكذبين الجاحدين، فها هى آيات الله واضحة لكل مشاهد رأى العين .

قال الطبرى : معنى الآية : لا ينفع كافراً لم يكن آمن قبل الطلوع إيمان بعد الطلوع ، ولا ينفع مؤمنا لم يكن عمل صالحاً قبل الطلوع عمل صالح بعد الطلوع ، لأن حكم الإيمان والعمل الصالح حينئذ حكم من

---

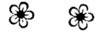
(١) الأنعام : ١٥٨

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ١٩٣ ـ والحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير سورة الأنعام ـ باب : لا ينفع نفساً إيمانها ـ حديث : (٤٦٣٦) : ٨ / ١٤٧ ـ ورواه مسلم فى كتاب الايمان ـ باب الزمن الذى لا يقبل فيه الايمان : ١ / ٩٥ ـ وأبو داود فى كتاب الملاحم ـ باب أمارات الساعة: (حديث : ٤٢٩٠) : ١١ / ٤٣٥ ـ وابن ماجه فى كتاب الفتن ـ باب طلوع الشمس من المغرب : (حديث : ٤٠٦٨) : ٢ / ١٣٥٢

آمن أو عمل عند الغرغرة . وذلك لا يفيد شيئاً كما قال تعالى : ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ وكما ثبت فى الحديث الصحيح : «تقبل توبة العبد ما لم يبلغ الغرغرة » ... وقال القاضى عياض : المعنى : لا تنفع توبة بعد ذلك ، بل يختم على عمل كل أحد بالحالة التى هو عليها ، والحكمة فى ذلك أن هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلوى ، فإذا شوهد ذلك حصل الإيمان الضرورى بالمعاينة وارتفع الايمان بالغيب، فهو كالإيمان عند الغرغرة وهو لا ينفع »[1]

وملخص كلام العلماء ـ رحمهم الله جميعاً ـ أن آخر الآيات الدالة على قيام الساعة : خروج الدابة التى تكلم الناس وطلوع الشمس من المغرب ، وأن طلوع الشمس من المغرب سابق على خروج الدابة ، وبذلك يغلق باب التوبة ، وترفع الأقلام فلا تكتب الملائكة شيئاً وتجف الصحف ، ثم يكون خروج الدابة التى تميز بين المؤمن والكافر .

« قال الحاكم أبو عبد الله : الذى يظهر أن طلوع الشمس يسبق خروج الدابة ، ثم تخرج الدابة فى ذلك اليوم أو الذى يقرب منه . قلت : والحكمة فى ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة ، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة .. »[2]



(١) انظر فتح البارى ١١ / ٣٦٠ ـ ٣٦١

(٢) المصدر السابق .

علامات أخرى

وإذا كانت علامات القيامة التى ذكرناها ، هى العلامات الكبرى التى تحدث تغييراً فى نظام الكون وتبديلاً ، وبعدها تقوم على الناس قيامتهم ، فإن هناك علامات أخرى سابقة لها تحدث بالتدريج على هيئة فتن ومصائب تقع فى هذه الأمة ، وقد أخبر المصطفى ﷺ بهذه العلامات ، وأنها أمارات للساعة ، ونذير بين يديها ، فمن رأى هذه الأمارات فليحذر الآخرة ، وليستعد لها بما ينجيه من أهوالها ويحميه من كروبها .

ومن هذه العلامات ما حدث فعلاً وها نحن نعاصره ، ومنها ما لم يحدث بعد ، وإنه لجدير بقوم يعاصرون علامات الساعة تحدث بين أظهرهم أن يعملوا لها وأن يتزودوا لسفرها الطويل ، وأن يكونوا منها على وجل ورهبة ، وها هى آيات الله عز وجل تدعونا للاستعداد ليوم القيامة .

﴿ يا أيها الذين آمنُوا اتقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نفسٌ ما قدمت لغدٍ واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بما تعملُونَ * ولا تكونُوا كالذِينَ نَسُوا اللهَ فأنساهُم أنفسَهُمْ أولئك هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ [1]

ومن وصايا الرسول ﷺ لأبى ذر رضى الله عنه : « أحكم السفينة فإن البحر عميق ، واستكثر من الزاد فإن السفر طويل ، وخفف ظهرك فإن العقبة كئود ، واخلص العمل فإن الناقد بصير » . [2]

وسوف نذكر بعضاً من حديث رسول الله ﷺ التى يخبرنا فيها بهذه العلامات ويحذرنا من وقوعها .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس فى البنيان ، ولا تقوم الساعة

---

(١) الحشر ١٨ ـ ١٩

(٢) ياغافلا والموت يطلبه ـ للشيخ كشك ١٢٧

حتى يقتتل فئتان عظيمتان . يكون بينهما مقتلة عظيمة ، دعواهما واحدة، ولا تقوم الساعة حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتكثر الفتن ، ويكثر الهَرْج ، ولاتقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله ، ولا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول · ليتني مكانك ، ولا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً . ولا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال . حتى يهم الرجل رب المال من يقبله منه »[1]

وفى الصحيحين عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ · « إن من أشراط الساعة أن يقل العلم ، ويظهر الجهل ، والزنا ، وشرب الخمر ، وتقل الرجال وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد »[2]

وقد ورد فى حديث جبريل الذى تقدم أنه سأل رسول الله ﷺ متى الساعة ؟ قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل . وسأخبرك عن أشراطها : إذا ولدت الأَمَةُ ربتَّها . وإذا ولدت الأَمَةُ رَبَّتَها . وإذا تطاول رعاء الإبل البهم فى البنيان .. »

وروى الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ · لاتقوم الساعة حتى يتقارب الزمان . فتكون السنة كالشهر ، ويكون الشهر كالجمعة ، وتكون الجمعة كاليوم ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كإحراق السعفة (الخوصة) زعم سهيل ، وهذا الإسناد على

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الفتن باب خروج النار . ومسلم مفرقاً فى كتاب الإيمان ـ باب الزمن الذى لايقبل فيه الإيمان . وفى كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب إذا تواجه المسلمان بسيفهما ـ وباب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت

(٢) رواه البخارى فى كتاب العلم ـ باب رفع العلم وظهور الجهل ، ومعنى القيم أى السيد والمقصود الزوج

شرط مسلم[1]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«والذى بعثنى بالحق لا تنقضى هذه الدنيا ، حتى يقع بينهم الخسف والقذف والمسخ » قالوا : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إذا رأيت النساء ركبن السروج ، وكثرت القينات ، وفشت شهادات الزور ، واستغنى الرجال بالرجال والنساء بالنساء » [2]

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ومجمل القول فيها أن الخير فى الدنيا وأهلها سوف ينحسر ويتراجع وأن الشر والفساد سوف يزداد ويتفاقم ، حتى تقوم الساعة على شرار الناس وأرذلهم ، كما ورد فى حديث رسول الله ﷺ : « وشرار الناس الذين تدركهم الساعة وهم أحياء » [3]

* * *

---

(1) رواه أحمد فى مسنده : ٢ / ٥٣٨ ، وانظر علامات يوم القيامة . ١٣٥ ، ومعنى زعم سهيل أى أنه شك أهى السعفة أم الخوصة والله أعلم .

(2) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد ـ كتاب الفتن ـ باب ماجاء فى المسخ والقذف وإرسال الشياطين والصواعق ، وقال : رواه البزار والطبرانى فى الأوسط . . وفيه سليمان ابن داود اليمامى وهو متروك : ٨ / ١٠.

(3) رواه أحمد فى مسنده . ٣ / ٢٦٨ .

الباب الثانى

الفصل الأول

* الإيمان بالموت .

ذكر الموت والاستعداد له .

لو تعلمون ما أعلم .

كيف نذكر الموت ؟

آفة الأمل وحب الدنيا .

الفصل الثانى

* عذاب القبر ونعيمه .

أدلة ذلك من الكتاب والسنة .

الفصل الأول
الإيمان بالموت

ومن إيماننا باليوم الآخر أن نؤمن بالموت ، إذ هو المفضى بنا إلى الآخرة ، والموصل إليها . والموت سنة لله تعالى جارية فى جميع خلقه فى سمواته وأرضه ، فالإنس والجن والملائكة وجميع الأحياء سيقع عليهم الموت لا محالة .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ شيءٍ هَالكٌ إلاَّ وجهَهُ لَهُ الحكْمُ وإليهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عليها فَانٍ * ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلالِ والاكْرَامِ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وما جعلنَا لبشر منْ قبلك الخلْدَ أفإنْ متَّ فَهُمُ الخالدُونَ * كُلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ونبلُوكُمْ بالشرِّ والخيرِ فتنةً وإلينا تُرْجَعُونَ ﴾ (٣)

وفى الحديث الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يقول : « أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت الذى لا يموت ، والجن والإنس يموتون » فالموت واقع بنا لا محالة . ولا يشك فى ذلك إلا من حرم نعمة العقل والتدبر ، وحتماً :

سَيصيرُ المرءُ يَوْماً جَسَداً ما فيهِ رُوح
بين عينى كُلِّ حَيٍّ عَلَمُ الموْتِ يلُوح
كُلنا فى غَفْلة والمرءُ يغدو ويرُوح
نُحْ على نفسكَ يا مِسْكِينُ إنْ كنت تَنُوح
لتَموتَنَّ ولَوْ عُمِّرتَ مَا عُمِّرَ نُوح

---

(١) القصص ٨٨
(٢) الرحمن ٢٦ ـ ٢٧
(٣) الأنبياء : ٣٤ ـ ٣

وإيماننا بالموت يستلزم أن نؤمن بأن له وقتًا معلومًا وأجلاً محدودًا ، لا يتأخر ولا يتقدم ، ولا يتبدل ولا يتغير ، فقد جرى بذلك قلم القدرة ، وحكم به قضاء الله وقدره ، وكل إنسان مات أو قتل أو حرق أو غرق أو بأى حتف هلك ، هو فى الحقيقة لم يستأخر عن أجله ولم يستقدم عنه طرفة عين ، وأن ذلك السبب الذى كان فيه حتفه هو الذى قدَّره الله تعالى عليه وقضاؤه الذى أمضاه فيه ، ولم يكن للعبد بد منه ولا محيص عنه ، ولا مفر له ولا مهرب ، ولا فكاك ولا خلاص ، وصدق الله العظيم :

﴿ وَمَا كَانَ لنفسٍ أَنْ تموتَ إلاَّ بإذنِ الله كتاباً مُؤَجَّلاً .. ﴾ (١)

ويقول تعالى : ﴿ وَلكُلِّ أمةٍ أجلٌ فإذا جاءَ أجلهم لا يستأخِرُونَ ساعةً ولا يستَقْدِمُونَ ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إنَّ الموْتَ الذى تَفرُّونَ منه فإنَّهُ مُلاَقيكُمْ ثم تُرَدُّونَ إلى عَالمِ الغيبِ والشهادةِ فينبؤكم بما كنتم تعملُونَ ﴾ (٣)

وعن عبد الله بن مسعود قال : قالت أم حبيبة رضى الله عنها : « اللهم مَتِّعْنى بزوجى رسول الله ﷺ وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية » فقال لها رسول الله ﷺ : « إنك سألت الله تعالى لآجال مضروبة ، وآثار موطوءة ، وأرزاق مقسومة ، لا يُعَجِّل شئ منها قبل حله ، ولا يُؤَخِّر منها يوماً بعد حله .. ولو سألت الله تعالى أن يعافيك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر لكان خيراً لك » (٤)

فالآجال معلومة عند الله عز وجل منذ خلق الإنسان وهو مايزال نطفة فى رحم أمه ، وهذا الاجل لا يقدم ولا يؤخر .

وقد يفهم من حديث الرسول ﷺ : « من سره أن يُبسط له فى رزقه ، ويُنسأ له فى أثره ـ أى يزاد فى عمره ـ فَلْيصلْ رحمه » .. وقد يفهم من

---

(١) آل عمران ١٤٥

(٢) الأعراف ٣٤

(٣) الجمعة ٨

(٤) رواه مسلم

الحديث أن عمر الانسان يمكن أن يمتد بعد أجله ، وليس ذلك المقصود من معنى الحديث ، فقد روى أبو الدرداء رضى الله عنه قال : ذكرنا لرسول الله ﷺ الزيادة فى العمر ، فقال : «إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد ، فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم فى قبره ، فذلك زيادة العمر » (١)

كما يستلزم إيماننا بالموت أن نؤمن بأن هذا الاجل المحتوم من علوم الغيب التى لا يطلع عليها أحد إلا الله عز وجل وليس لكائن من كان أن يدعى معرفة ذلك ، إذ آجال العباد واحد من خمسة هى علوم الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها .

﴿ إنَّ اللهَ عندهُ علْمُ الساعة وينزِّلُ الغيْثَ ويعلمُ ما فى الأرحَام وما تدرى نفسٌ ماذَا تكسبُ غَداً ومَا تدرى نفسٌ بأىِّ أرْضٍ تموتُ إنَّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ ﴾ (٢)

وفى حديث رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض ، جعل له فيها ـ أو قال بها ـ حاجة » (٣)

* * *

---

(١) انظر معارج القبول ٢ / ١٠٢

(٢) لقمان ٣٤

(٣) رواه أحمد والترمذى وغيرهما

ذكر الموت والاستعداد له

من صفات المؤمنين المتقين : أنهم دائماً ذاكرون للموت عاملون لما بعده، معرضون عن الدنيا ، مقبلون على الآخرة ، عاملون بقول الرسول ﷺ: « أكثروا من ذكر هادم اللذات »[1] فذكر الموت يوجب على الانسان التجافى عن الدنيا وشهواتها والزهد فيها وفى متعها وصرف النظر عنها وعن حطامها ، وذكر الموت يوجب الاستعداد له قبل نزوله ، والتأهب لما بعده قبل حصوله ، والمبادرة بالعمل الصالح والسعى النافع قبل مداهمة البلاء وحلوله .

إذ الموت هو الفيصل بين دار الفناء ودار البقاء ، وبين وقت العمل ووقت الجزاء ، فليس بعد الموت لأحد اعتذار أو مستعتب ، ولا زيادة فى الحسنات ولا نقص فى السيئات ، وليس بعد الموت حيلة أو افتداء ، أو درهم أو دينار ، ليس بعد الموت إلا القبر .. وما أدراك ما القبر .. ؟ فلو وقفنا على حقيقته لشابت منا الرؤوس وتفطرت منا الأكباد خوفاً وهلعاً .

أمَا واللهِ لَو عَلِمَ الأنَامُ ... لما خُلقُوا ، لما غَفلُوا ونَامُوا

لَقَدْ خُلقُوا لما لَوْ أبْصَرَتْهُ ... عُيون قلوبهم تاهُوا وَهَامُوا

مَماتٌ ثُم قَبرٌ ثُم حشرٌ ... وتوبيخٌ وأهوَالٌ جِسَامُ

لِيَوْم الحَشْر قَدْ عملت رِجَالٌ ... فَصَلُّوا مِنْ مَخَافَتِه وصَامُوا

وَنَحْنُ إذَا نَهَيْنا أو أمَرْنا ... كَأهْلِ الكَهْفِ أيْقَاظٌ نِيَامُ

قال ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أتيت النبى ﷺ عاشر عشرة ، فقال رجل من الانصار : من أكيس الناس ، وأكرم الناس يارسول الله ؟ فقال: « أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم استعداداً له ، أولئك هم الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة »[2] .

---

(١) رواه الترمذى ، وقال : حسن ، والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة

(٢) قال الحافظ العراقى فى تخريج الإحياء : رواه ابن ماجه مختصراً وابن أبى الدنيا بكماله باسناد حسن انظر الإحياء : ٤ / ٣٨٣

والكيس هو الذكى الفطن : ما غرته الدنيا ولا استهواه الشيطان ، فذكَّرهم الموت بالآخرة فعملوا لها وقدموا الزاد لسفرها الطويل ، ففازوا بشرف الدنيا لزهدهم فيها ، وكرامة الآخرة برضوان من الله وفضل .

ومن أقوال الحسن البصرى رحمه الله : من علم أن الموت مورده ، والقيامة موعده والوقوف بين يدى الله تعالى مشهده ، فحقه أن يطول فى الدنيا حزنه ـ أى تفكيره فى آخرته ووقوفه بين يدى ربه وخالقه .

والموت هو أعظم واعظ وأبلغ معلم ، وهو أقوى الدوافع للزهد فى الدنيا والعمل للآخرة حيث يقطع المرء طمعه فى الدنيا وحرصه على طلبها ، ولا يأخذ منها إلا بقدر ما يوصله إلى بغيته ، ويقبل على الآخرة فيقدم لها صالح العمل .

وقد يتبادر إلى ذهن القارئ الكريم أن فى ذلك دعوة للتقوقع والسلبية أو تركاً للدنيا وما عليها ، أو أن يكون المسلم حزينا مربد الوجه دائماً .

وهذا ما لا يقبله ديننا الحنيف ولا يرضاه ، والمقصود من ذكر الموت عدم الانهماك فى الدنيا انهماكاً ينسينا الآخرة ويُفوِّت علينا ثواب الله وعظيم جزائه ، وهذا ما يقع فيه الكثيرون منا ، حيث تأخذهم الدنيا فى دوامتها فيدورون معها حيث دارت ، ويبذلون فى سبيلها كل الوقت والجهد والمال ، بل ويدوسون من أجلها كل القيم والتعاليم ، ولا يبقى فى حياتهم مجال لعمل الآخرة أو الاستعداد لها .

وقد علمنا رسولنا ﷺ أن نجمع بين الدنيا والآخرة فلا تطغى إحـداهما على الاخرى ، فقال : « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ، ولا آخرته لدنياه ، حتى يصيب منهما جميعاً ، فإن الدنيا بلاغ إلى الآخرة .. »

ونسوق فى هذا المقام مثالاً لنا فيه عبرة : فهذا أبو العباس : الوليد ابن عبد الملك ، أحد ملوك الدولة الاموية فى الشام ، ولى بعد وفاة أبيه سنة ٨٦ للهجرة ، فوجه القواد ، وفتح البلاد ، وكان من رجاله موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد ، وامتدت فى زمنه حدود الدولة الإسلامية

إلى بلاد الهند ، فتركستان فأطراف الصين شرقاً ، فبلغت مسافتها مسيرة ستة أشهر بين الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ، ومع ذلك كان نقش خاتمه : (ياوليد إنك ميت)

هذه حال المتقين من عباد الله ، الذين حملهم ذكر الموت على تعمير آخرتهم ، فازدادوا بذكر الموت حباً فى الآخرة ، وشوقاً إلى لقاء الله ، هؤلاء الذين أحبوا لقاء الله فأحب الله لقاءهم ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

أما أولئك المنهمكون فى الدنيا الغارقون فى شهواتها وملذاتها ، الجامعون لحطامها ، الحريصون على الدرهم والدينار والمساكن والأولاد والضياع ، أولئك الذين استهواهم الشيطان فأضلهم وأعمى أبصارهم ، فليس لهم هَمٌّ إلا المال وجمعه ، ثم حمايته وحراسته ، فما بالك بقوم هذا حالهم ؟! أيكونون ذاكرين للموت حقا ؟! وإذا ذكروه ، هل سيدفعهم إلى العمل الصالح ؟!

والإجابة عن هذه التساؤلات واضحة : فمثل هؤلاء المغرورين فى الدنيا يكونون فى غفلة عن ذكر الموت ، فلا يكادون يتذكرونه ، وإذا ذكروه كرهوه ونفروا منه ، كيف وهو الذى سيحرمهم من نعيمهم ويسلبهم ملكهم ، ويفضى بهم إلى دار قفر خراب ملؤها المعاصى والآثام ؟ فشئ طبيعى أن يكونوا كارهين للقاء الله ، نافرين من الموت ، وإذا ذكروه كان عليهم حسرة وندامة ، هؤلاء الذين كرهوا لقاء الله فكره الله لقاءهم ، وقال فى حقهم : ﴿ قُلْ إنَّ الموْتَ الذِى تفرُّونَ منه فإنه مُلاَقيكُمْ ثُمَّ تُردُّونَ إلى عالمِ الغيْبِ والشهادة فينبؤكم بما كُنْتُمْ تعملُونَ ﴾[1]

ولو تفكر هؤلاء المغرورون فى الدنيا المخدوعون فى زخرفها ، لقصروا عن هذا الغى والضلال ورجعوا إلى جادة الطريق ، ولأنشدوا مع القائل :

يَانَفْسُ لاَ تَغْرقِى فِى لُجةِ الزَلَلِ الخَيرُ فِى طَاعةِ الرَحْمَنِ فامْتثِلِى

---

(١) الجمعة . ٨

يَانَفْسُ مَا هَـذِهِ الـدُّنْيَـا بِدَائِـمَةٍ وأىُّ حَـىٍّ عَلَيْهَا غَـيْرُ مُرْتَحِـلِ !
إن كُنت تَسْـعَيْنَ يَانَفْسُ إلى أمـلٍ فَـإنَّه أمــلٌ يُفْضِى إلى أجَـلِ
أوْ كُنْت تَسْـعَيْنَ يَانَفْسُ إلَى سَـعَةٍ فِى العَيْشِ فالعَفْو مِنْ مَوْلاَى أوْسَعُ لِى
يَا رِحْلَة العُمْرِ ، هَلْ ضَلَّ الطَّرِيقُ بِنَا ؟ آمَـالُنَا صَدِئتْ وَالـرَّكْبُ لَـمْ يَصِلِ
كَمْ مِنْ فَتَى ظَلَّتْ الأحلامُ تُوهِـمهُ بـأنَّـه واحِـدُ الـدُّنْيَـا بِلاَ جَـدَلِ
وَأنَّـهُ سَـيَنَالُ العَيْـشَ أجمَعَهُ فَجَـاءَهُ المـوتُ لم يفـرحْ ولَمْ يَنَـلِ
وَكَمْ عَـزِيزٍ وَهَبْنَا التـرب جبـهتَهُ لَوْ استَطعْنَا لأسْكنَاهُ فِى المقَـلِ
وَكَمْ سَلِيمٍ مُعَافَىً جَـاءَه أجَـلٌ وعائـشٍ يَشْـتَكِى مِنْ كَثْـرَةِ العِلَلِ
وَكَمْ صَغِيرٍ بِعُمْرِ الـزهْـرِ أذْبَـلهُ مَوْتٌ ، وَذِى شَيْبَةٍ يَشْتَاقُ للأجَلِ [1]

وكانت آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز ـ خامس الخلفاء الراشدين ـ أن حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد .. أيها الناس، إنكم لم تُخْلَقُوا عبثا ولن تُتْرَكُوا سُدىً ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر وشقى عبد أخرجه الله من رحمته وحُرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لا يأمن غداً إلا من حذر هذا اليوم ، وخافه ، وباع نافد بباق ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم الباقين ، حتى تردون إلى خير الوارثين ؟ ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ـ عز وجل ـ قد قضى نحبه ، وانقضى أجله ، حتى تُغَيِّبُوه فى صدْع من الأرض فى بطن صدع ، غير ممهد ولا موسد ، قد فارق الأحباب ، وباشر التراب ، وواجه الحساب ، مرتهن بعمله ، غنى عما ترك ، فقير إلى ما قدم ، فاتقوا الله قبل انقضاء مواثيقه ، ونزول الموت بكم » ثم جعل طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله [2]

---

(١) من قصيدة بعنوان : رحلة العمر للشاعر : عبد الرحمن صالح العشماوى
(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ٢٥٩

لو تعلمون ما أعلم

أمر الموت شديد وعظيم ، وكربه فظيع وأليم ، فكم له من سكرة بعد سكرة ، وغُصةٍ بعد غُصةٍ ؟! وكم فى النزع من أهوال ودواهٍ وكروب جسام مما لا يعلم حقيقته إلا الله .

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ خرج إلى المسجد ، فإذا بقوم يتحدثون ويضحكون ، فقال : « والذى نفسى بيده ، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » [١]

والمراد بالعلم فى الحديث ما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه ، والأهوال التى تقع عند النزع والموت وفى القبر ويوم القيامة ، وفى الحديث إخبار منه ﷺ أنه يعلم من أمر الموت وشدته ما لا يعلمه غيره من أمته .

ويقول ﷺ : « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا » [٢]

ونترك الحديث فى هذا المقام لحجة الاسلام الامام الغزالى - رحمه الله - ليصف لنا سكرات الموت وشدته ، فيقول :

« اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها ، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ، ويعظم له استعداده ، لا سيما وهو فى كل نفس بصدده ، كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك .. واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ، ومن لم يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التى أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ماهم فيه ..

(١) فتح البارى ١١ / ٣٢٦ - باب قول النبى ﷺ « لو تعلمون ما أعلم . لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرا » .

(٢) قال الحافظ العراقى . البيهقى فى الشعب من حديث أم حبيبة . انظر . الإحياء ٤ / ٣٨٢

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق فى جميع أجزائه ، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم ، فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار ، فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم .

وأما الجراحة فإنما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار ، فألم النزع يهجم على نفس الروح ، ويستغرق جميع أجزائه ، فانه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق ، وعصب من الاعصاب ، وجزء من الاجزاء ، ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة وبشرة من المفرق إلى القدم ، فلا تسأل عن كربه وألمه ، حتى قالوا : إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمناشير ، وقرض بالمقاريض ..

وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه ، لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه ، وبلغ كل موضع منه ، فهدَّ كل قوة ، وضعف كل جارحة ، فلم يترك له قوة الاستغاثة ، أما العقل فقد غشيه وشوشه ، وأما اللسان فقد أبكمه ، وأما الاطراف فقد ضعفها ، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، ولكنه لا يقدر على ذلك ، فإن بقيت فيه قوة ، سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه وارَبدَّ ، حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ..

فلا تسل عن بدن يُجذب منه كل عِرْق من عروقه ، ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم، لا من عرق واحد ، بل من جميع العروق ، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً ، فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ، ولكل عضو سكرة بعد

سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها الى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ، ويُغْلَقُ دونه باب التوبة ، وتحيط به الحسرة والندامة ، قال رسول الله ﷺ : « تُقْبَلُ توبة العبد مالم يغرغر ».. ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم هَوِّنْ على محمد سكرات الموت» والناس إنما لا يستعيذون منه ، ولا يستعظمونه لجهلهم به .. » [١]

هكذا تكون شدة الموت وألمه وكربه ، حتى على رسول الله ﷺ فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « لا أغبط أحداً يهون عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ » ويروى عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند موته ، فجعل يُدخل يده فى الماء ويمسح بها وجهه وهو يقول : « اللهم هَوِّن عليَّ سكرات الموت » [٢]

وإذا كانت هذه حال أكرم الناس على الله عند موته ، فما بالنا نحن المنغمسين فى وحل الدنيا ، الغافلين عما يُراد بنا ؟ « وما بالنا لا نتعظ بموته وهو أسوتنا وقدوتنا حياً وميتا ، وفعلاً وقولاً ، وجميع أحواله عبرة للناظرين ، وتبصرة للمستبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه ، إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيَّه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه ، فانظر : هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ؟ وهل أخره لحظة بعد حضور منيته ؟ لا.. بل أرسل إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك فى النزع كربه ، وظهر أنينه وترادف قلقه ، وارتفع حنينه وتغير لونه ، وعرق جبينه واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوة دافعاً عنه مقدوراً ؟ وهل راقب الملك فيه أهلاً وعشيراً؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيراً وللخلق بشيراً ونذيراً ؟ هيهات . بل امتثل ما كان به مأموراً ، واتبع ماوجده فى اللوح مسطوراً .

---

(١) الإحياء : ٤ / ٣٩٢

(٢) متفق عليه من حديث عائشة .

فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والحوض المورود وهو أول من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض ، فالعجب أنا لا نعتبر به ، ولسنا على ثقة فيما نلقاه ، بل نحن أسراء الشهوات وقرناء المعاصى والسيئات ، فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين » (١)

نعم .. إن فى موت الرسول ﷺ أبلغ عبرة ، وأعظم موعظة لمن كان له قلب يعى وعقل يتدبر ، وإنه لجدير بنا أن نحقق ذكر الموت فى نفوسنا ، ونقلع عما نحن فيه من لهو ولعب فالموت يأتى بغتة ويحل فجأة ، فلا وقت للتهاون والتسويف ، وقد وعظ رسول الله ﷺ رجلاً ، فقال له : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » (٢)

وأفظع من نزع الروح وسكرات الموت وغصصه وكربه ، ما يلاقيه الميت من هلع عند رؤية ملك الموت فى صورته البشعة التى يقبض عليها أرواح العاصين والفجرة والكافرين ، إن منظره وقتئذ لرهيب ومخيف ، منظر تتفكك منه أوصال الانسان ويتهدم كيانه ، ويأخذ من الهول والكرب ما لا يعلمه إلا علام الغيوب ، نسأل الله السلامة وحسن الخاتمة .

« روى عن ابراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن ترينى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطيق ذلك ، قال : بلى ، قال : فأعرض عنى ، فأعرض عنه ، ثم التفت فإذا هو برجل أسود ، قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان ، فغشى على ابراهيم ـ عليه السلام ـ ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى ، فقال : يا ملك الموت ، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه » (٣)

وأعظم من هذا وذاك على العاصين عند الموت ، ومن أعظم الدواهى

---

(١) الإحياء : ٤ / ٣٩٨

(٢) رواه الحاكم عن ابن عباس ، وقال : صحيح على شرطهما ، وقال شارح الجامع : إسناده حسن .

(٣) الإحياء : ٤ / ٣٩٤

عليهم ما يلاقونه من ألم وحسرة ، حينما تبشرهم ملائكة الله بالعذاب وسوء المنقلب والمآب ، وحينما يُعْرَضُ عليهم مقعدهم من الجنة ومقعدهم من النار ، فعند ذلك يأخذهم من الحسرة والندامة ما الله به عليم .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته ، وإن الكافر إذا حُضِرَ بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته »



كيف نذكر الموت ؟

وإنما يتحقق ذكر الموت فى القلوب ، ويؤتى ثمرته المرجوة ، إذا كان ذكر الموت بقلب خال من الدنيا وشهواتها معرض عن زينتها وحطامها ، مقبل على الآخرة يبتغى تعميرها ، وهكذا يحملنا ذكر الموت على الاستعداد له وتقديم صالح العمل ، وتعجيل التوبة قبل حلول الأجل .

وأوضح الطرق لتذكر الموت أن يعتبر الانسان بمن مضوا من إخوانه وأقرانه وأهله ، وسبقوه إلى المصير المحتوم ، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب حسن صورهم ، وكيف تبددت أجزاؤهم فى قبورهم ، وكيف ترملت نساؤهم وتيتم أولادهم ، وضُيِّعت أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم ، فمهما تذكر رجلاً رجلاً ، وفصل فى قلبه حاله وكيفية موته ، وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين فى وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر ، وهو غافل عما يُرَادُ به ، حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه ، فانكشفت له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ، فعند ذلك ينظر فى نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم .. وما أبلغ قول ابن مسعود رضى الله عنه : « السعيد من وعظ بغيره »[1]

ويُروى أن بعض المتعبدين أتى قبر صاحب له كان يألفه ، فوقف عند رأسه وأنشد يقول :

---

(١) الإحياء ٤٠ / ٣٨٤

مـا لى مَـرَرْتُ عَلى القُـبورِ مُسَلِّمًا   قَـبْرَ الحبيبِ فَلَمْ يُـرد جَـوَابِـى
أَحَـبِيبُ مـا لك لاَ تُجِـيبُ مُنَـادِيًا   أَمَـلَلْتَ بَعْـدِى خُـلَّةَ الأَصْحَـابِى

قال : فهتف بى صوت من جانب القبر يقول لى :

قَاَلَ الحـبِيبُ : وَكَيفَ لِى بِجَوابِكُمْ   وأَنَـا رَهـينُ جَـنَادِلٍ وَتُـرَاب
أَكـلَ التراَبُ مَحَاسِنِى فَنَسِـيتُكُمْ   وَحُجِـبْتُ عَنْ أَهْلِى وَعَنْ أَصْحَـابِى
وَتَمـزَّقَتْ تِلْكَ الجُـلُـود صفَـائِحاً   يَاطَـالَمَا لَبِسَـتْ رَفِيـعَ ثِيَـابِ
وَتَسَـاقَطَتْ تِـلْكَ الأَنَامِـلِ مِـنْ يَدِى   مَا كَـانَ أَحْسَـنَهَا لِخَـطِّ كِتَـابِ
وَتَسَـاقَطَتْ تِـلْكَ الثَّنَـايَا لُـؤلُـؤاً   مَا كَـانَ أَحْسَـنَهَا لِـرَدِّ جَـوَابِ
وَتَسَـاقَطَتْ تِلْكَ العُـيُونُ عَلَى الثَرَى   يَاطَـالَمَا نظَـرْتُ بِـهِـمْ أَحـبَـابِـى

فيا سعادة من اتعظ بغيره واعتبر بأمثاله الذين سبقوه ، فليس له مصير غير مصيرهم ولا نهاية سوى نهايتهم ، وها نحن أولاء نشيع كل يوم عزيزاً ونودع قريناً الى مثواه ، ويكون إكرامنا إياه أن نهيل عليه التراب .

وإذا حـمـلت إلـى القـبور جنازة   فاعـلم بـأنـك بعـدها محـمـول

وصدق الرسول المصطفى الكريم حيث قال : « كفى بالموت واعظاً »[1]

ومع ذلك فأمر الانسان أمام الموت عجيب وغريب ، فهو مصدق بالموت، مؤمن به ، بل مشاهد له كل يوم ، ولا يجد فى نفسه شكًا أو ترددًا أو تكذيبًا إذا وصله نعى فلان أو فلان ، إلا أنه لا يتوقع ذلك على نفسه ، ولا يتصور أنه يجرى عليه الموت ، فما أبعده عن نفسه هو وما أقربه من الآخرين ، وكأنه من المخلَّدين ، وأن الموت على غيره قد كتب .

وما أبلغ ما قاله الإمام الحسن البصرى رحمه الله : « ما رأيت يقينا

---

(١) قال الحافظ العراقى . رواه الطبرانى والبيهقى فى الشعب من حديث عمار بن ياسر ، بسند ضعيف ، وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض ، رواه البيهقى فى الزهد ، انظر الإحياء : ٤ / ٢٨٣

أشبه بالشك من يقين الناس بالموت » وهذا نتيجة التشبث بالحياة والتمسك بها وحب البقاء فيها ، فصاحب الدنيا يكره أن يفارقها ، ولذا فما أبعد الموت عن ذاكرته ، وهذه حيلة من أعظم حيل الشيطان وأقوى حباله التى يوقع بها الانسان .. إنها الدنيا .



آفة الأمل وحب الدنيا

بداية .. نوضح أن الأمل المذموم والذى هو آفة المؤمن ، وواجب عليه أن يحذره ولا يقع فى شباكه ، هو الأمل الصارف عن الآخرة والعمل لها ، حيث يتمادى الانسان فى أمله حتى يملك عليه جوانب نفسه ، ولا يكون له تفكير إلا فيه ، ولا سعى إلا لتحقيقه ، فهو مشغوف بالدنيا ، يمنى نفسه بتحقيق رغباته وآماله من جمع المال ثم استثماره وزيادته ، ثم حراسته والدفاع عنه ، ثم ضرب أخماس فى أسداس وحسابات تأخذ كل الوقت وربما نغصت عليه لذة الحياة ، وناهيك بتوابع ذلك من الديار والقصور والأولاد وسائر شهوات الدنيا ومتعها ، ولا يكاد المسكين ينتهى من عمل حتى يبدو له آخر ، وهو مسترسل فى آماله منهمك فى أمنياته ، ناسياً أجله وساعته ، معرضاً عن عمارة آخرته ، وربما لا يفيق إلا على نداء الملك بالرحيل ، فعند ذلك يصحو من غفلته ، ويعض أنامله ندماً ، وهيهات ينفع الندم .

هذا هو الأمل المقصود بالحديث ، وهو المذكور فى قوله تعالى :

﴿ ذَرْهُمْ يأكلُوا ويتمتَّعُوا ويُلْهِهِمُ الأمَلُ فسوْفَ يعلمُونَ ﴾ (١)

وواضح ما فى الآية من تهديد لأولئك الذى ألهتهم الدنيا عن الآخرة ولعب بهم أمل كاذب ، واستهواهم سراب خادع أنساهم أمر آخرتهم فتركوها خراباً وهم صائرون إليها ، ولو تدبر العاقل ما عمر الدنيا الفانية وهو يعلم أنه تارك لها وأنها تاركة له . وما خرب الآخرة وهو يعلم أنه قادم عليها ولا مفر له منها .

وأعظم آفات طول الأمل فى الدنيا أنه ينسى صاحبه أمر آخرته ، لذا حرص الرسول ﷺ أن يعلمنا درساً نافعاً وشافياً ، فيما رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت

---

(١) الحجر : ٣

وليدة بمائة دينار إلى شهر ـ أى لا يدفع ثمنها إلا بعد شهر ـ فسمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ألا تعجبون من أسامة ، المشترى إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل ، والذى نفسى بيده ، ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفرىَّ لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ، ولا رفعت طرفى فظننت أني واضعه حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أُغَصَّ بها من الموت .. ثم قال : يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده ﴿ إنَّ ما تُوعدُونَ لآتٍ وَمَا أنتُمْ بمعْجِزِينَ ﴾ [1]

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » وكان ابن عمر يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » [2]

وفى الحديث إشارة إلى إيثار الزهد فى الدنيا وأخذ القدر اليسير منها الذى يبلغ الانسان غايته ، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره ، فكذلك المؤمن فى الدنيا لا يحتاج منها إلى أكثر من ذلك ، ولا يركن إليها ولا يتخذها وطنا ومقراً ، ولا يُحدِّث نفسه بالبقاء فيها ، فهو غريب على ظهرها ، لا يلبث أن يعود إلى موطنه ومستقره الحقيقى .

وقال على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ : « ارتحلت الدنيا مدبرة ، وارتحلت الآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل » .

---

(١) قال الحافظ العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل ، والطبرانى فى مسند الشاميين ، وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف ، انظر الإحياء : ٤ / ٣٨٥

(٢) فتح البارى : ١١ / ٢٣٧ (حديث : ٦٤١٦)

وها نحن فى سعة الدنيا وبحبوحتها ، وها هى ذى الفرصة سانحة للعمل وتقديم الزاد ، قبل أن ينادى مناد الرحيل ، ويُغلق دوننا باب التوبة والعمل ، ويطوينا باطن الأرض . ﴿ يا أيها النَّاسُ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تغرنكُمُ الحياةُ الدنيا ولايغرنكُمْ بالله الغَرُورُ ﴾[1]

هذا عن طول الأمل المذموم المنهى عنه ، أما الأمل المحبوب والمرغوب فيه ، فهو الدافع إلى العمل الحافز عليه ، وهو الذى لا يلهى صاحبه عن الآخرة ، وهو الذى يقول عنه ابن حجر فى فتح البارى : « وفى الامل سر لطيف ، لأنه لولا الأمل ما تهنى أحد بعيش ، ولا طابت نفسه أن يشرع فى عمل من أعمال الدنيا ، وإنما المذموم منه الاسترسال فيه ، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة ، فمن سلم من ذلك لم يكلف بإزالته »[2]

* * *

---

(١) فاطر · ٥

(٢) فتح البارى · ١١ / ٢٤١

الفصل الثانى
عذاب القبر ونعيمه

ومن أعظم ما يلاقيه الميت بعد موته ، ما يتعرض له من فتنة القبر ، وما يلاقيه من كروب وأهوال من سؤال منكر و نكير وضمة القبر وما فيه من ألوان العذاب والنكال للعاصين .

وعذاب القبر ونعيمه ، ثابت بنصوص القرآن الكريم والحديث الشريف وباجماع السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم من أهل السنة والجماعة ، ولا يشك فى أمره إلا شقى حُرِم نعمة الإيمان والتصديق فمن فسدت عقولهم وسقمت أفهامهم ، فأنكروا صريح القرآن والسنة واتبعوا الأهواء والظنون .

وهاكم أدلة القرآن الكريم فى إثبات عذاب القبر [1] :

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرىَ إذ الظالمون فى غمرات الموْتِ والملائكةُ باسطُوا أيديهم أَخرجُوا أنفسكُمْ اليوْمَ تُجزَوْنَ عذابَ الهُونِ بما كنتم تقُولُونَ على الله غَيْرَ الحقِّ وكنتم عن آياته تستكبُرونَ ﴾ [2]

قال أئمة التفسير : ﴿ والملائكةُ باسطُوا أيديهم ﴾ أى إلى الظالمين بالضرب والنكال ، وأنواع العذاب ، حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ولهذا يقولون لهم : ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ وذلك أن الكافر إذا حضره الموت بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والسلاسل والأغلال ، والجحيم والحميم ، وغضب الرحمن الرحيم ، فتتفرق روحه فى جسده ، وتعصى وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم .

ووجه الدلالة فى هذه الآية . أن الميت إذا كان يفعل به هذا وهو محتضر بين أهله ، وهم لا يرون شيئاً من ذلك ولا يسمعون ، ولا يدرون بشئ من الضرب وما يقاسيه المحتضر . فلأن يفعل به فى قبره ذلك

---

(١) معارج القبول ٢ / ١١١ وما بعدها

(٢) الأنعام : ٩٣

وأعظم منه ، ولا يعلمه من كشف عنه أولى وأظهر ، لأنهم لم يروا ما وقع به وهو بينهم فى الدنيا ، فكيف يرون ما هو فيه من العذاب بعد أن انتقل إلى عالم آخر غير عالمهم ودار غير دارهم .

وقال تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنُوا بالقوْلِ الثَّابتِ فى الحياةِ الدُّنيا وفى الآخِرَةِ وَيُضلُّ اللهُ الظالمِينَ ويفعلُ اللهُ ما يشَاءُ ﴾ [1]

هذه الآية نصها فى عذاب القبر بصريح الأحاديث النبوية وباتفاق أئمة التفسير من الصحابة والتابعين ، وأن المراد بالتثبيت فى الآية هو عند سؤال الملكين فى القبر حقيقة ، فقد أخرج البخارى عن البراء بن عازب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا أقعد المؤمن فى قبره ، أتى ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنُوا بالقَوْلِ الثابتِ ﴾ رواه فى مواضع ووافقه عليه مسلم وغيره .

وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أحدهم الموْتُ قال رَبِّ ارجعُونِ لَعلِّى أعملُ صالحاً فيما تركتُ كَلاَّ إنها كلمةٌ هُوَ قائلُهَا وَمِنْ ورائهم بَرْزَخٌ إلى يوْمِ يُبعثُونَ ﴾ [2]

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ويل لأهل المعاصى من أهل القبور ، تدخل عليهم فى قبورهم حيات سود : حية عند رأسه ، وحية عند رجليه يقرصانه حتى يلتقيا فى وسطه ، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ورائهم بَرْزَخٌ إلى يوم يُبعثُونَ ﴾

وقال تعالى : ﴿ سَنُعذِّبهُمْ مرتينِ ﴾ [3] قال جماعة من المفسرين : المراد بذلك : عذاب الدنيا وعذاب القبر ، ثم يردون إلى عذاب عظيم وهو عذاب النار .

وغير ذلك كثير من الآيات تثبت لكل متدبر حقيقة القبر وعذابه ، بما لا يدع مجالاً للشك فيه .

---

(١) ابراهيم : ٢٧

(٢) المؤمنون ٩٩ ـ ٠

(٣) التوبة ١٠١

أما الأحاديث النبوية التى تثبت لنا عذاب القبر ونعيمه ، فهى كثيرة بلغت مبلغ التواتر إذ رواها أئمة السنة وحملة الحديث ونقاده عن الجمع الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم ، وسوف نورد فى هذا المقام حديثاً واحداً لرسول الله ﷺ والحديث رغم طوله إلا أنه يحمل الكثير من العبرة والعظة التى نبتغيها فى هذه السطور .

روى الإمام أحمد عن البراء بن عازب ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الانصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به فى الارض ، فرفع رأسه فقال : « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثاً .

ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر ، ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، أخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فىِّ السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها ـ يعنى على ملأ من الملائكة ـ إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها ، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى ، قال : فتعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الاسلام ، فيقولان له : ما هذا

الرجل الذى بُعِثَ فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله ، فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى ، فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرك . هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير . فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة ، حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه ، معهم المسوح فجلسوا منه مدَّ البصر ، ثم يجئ ملك الموت ، فيجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجى إلى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرق فى جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح . فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يُسَمَّى بها فى الدنيا ، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لاَ تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ ولا يدخلُونَ الجنة حتى يلِجَ الجملُ فى سَمِّ الخِيَاطِ ﴾ فيقول الله : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ـ ثم قرأ : ﴿ وَمَنْ يُشرِكْ بالله فكأنما خَرَّ من السماءِ فَتَخْطَفُهُ الطيرُ أَوْ تَهْوِى به الريحُ فى مكانٍ سَحِيقٍ ﴾ فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسانه ، ويقولان له : من ربك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى ، فافرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسَمُومها ويُضَيَّقُ عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح

الوجه ، قبيح الثياب، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت تُوعد ، فيقول : ومن أنت ، فوجهك الوجه الذى يجئ بالشر ؟ فيقول . أنا عملك الخبيث ، فيقول : رَبِّ لا تُقِم الساعة »[1]

وفى الحديث كفاية عن إيراد غيره ، وفيه عبرة لكل مستبصر ومعتبر ، وجدير بكل عاقل أن يتفكر فى نهايته ومثواه ، وأن يتصور نفسه وحيداً فى قبره لا أنيس ولا جليس ، فى بيت الظلمة والوحشة والغربة والدود ، ويعجز الوصف عن إدراك هذا الأمر الخطير الذى لا يعلم كنهه إلا علام الغيوب، وصدق لقائل :

تالله لَوْ عَاشَ الفتى فى دَهْرِهِ ... ألفاً مِنَ الأعْوَامِ مَالكَ أمْرِهِ
مُتلذِّذاً فيها بِكُلِّ نفيسةٍ ... مُتَنَعِّماً فيهَا بِنُعْمَى عَصْرِهِ
لاَ يَعْتَرِيه السقْمُ فِيها مَرَّةً ... كَلاَّ وَلاَ تَرِدُ الهمُوم ببَالِه
مَا كَانَ هَذَا كُلُّه فِى أَنْ يَفِى ... بِمبيتِ أوَّلِ ليلةٍ فِى قَبْرِهِ

والعاقل السعيد من وُعظَ بغيره ، واعتبر بمن مات تحت سمعه وبصره، وحمله إلى القبور على كتفه ، وواراه التراب بيده ، ثم رجع وتركه وحيداً فريداً ، ولو بقى معه ما نفعه ، وهو يعلم أن ذلك مثواه ، وتلك نهايته ، ولو كُشفتْ عن الموتى الحُجُب لقالوا لنا : اتقوا الله وقدموا صالح العمل ، ولا تلعب بكم الدنيا كما لعبت بنا .

والأحمق الشقى من عاش غافلاً عن حقيقته متشاغلاً عن آخرته منهمكا فى دنياه ، لا تنفعه الموعظة فهو لاه عنها ومنصرف . لا يتذكر الموت ولا يفكر فيه ، وإن شيَّع ميتا صدق فيه قول القائل :

تَروّعُنَا الجنائزُ مُقْبلاتٍ ... ونلهُو حين تذهبُ مُدْبِراتِ
كَرَوْعةِ ثُلّةٍ لمغَارِ ذِئْبٍ ... فلمَّا غابَ عَادتْ راتعاتِ[2]

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والنسائى

(٢) ثلة : أى جماعة . والمقصود مجموعة الغنم : أى ترتاع حينما يغير عليها الذئب . ثم تعود للرعى إذا غاب . وهكذا حال العاصين مع الموت

الباب الثالث

الفصل الأول

أمور فقهية (١)

لما كان الموت يأتى بغتة ، بعد إنذار أو دون إنذار ، ويجد الواحد منا نفسه أمام تجربة قاسية ، حيث يطرق الموت بابه ليأخذ واحداً من أهله حل أجله وحانت منيته ، وعليه فى هذه اللحظة أن يكون على علم كامل بأحوال الموتى وما يجب عمله للميت من لحظة خروج روحه حتى يُودِعَهُ فى قبره ويحثو عليه التراب .

والحقيقة أن هذه الأحكام الفقهية المتعلقة بالجنائز يجهلها كثير من الناس ، أو لا يحسنون القيام بها اعتماداً على أنها أمور تقوم على الكفاية فإذا عرفها بعضهم قام بها عنهم ، وانتشرت هذه النظرة لأحكام الجنائز حتى أصبحنا نرى كثيرين يموتون دون أن يجدوا من يلقنهم الشهادة ، أو يفتقد الناس من يعلم أحكام الغُسْل ليقوم بتغسيل الميت ، وقد يتأخر دفن الميت بسبب عدم وجود شخص يقوم بمثل هذه الأمور ، وهذا لا يليق بمجتمع المسلمين ، ويجب أن يكون الجميع على علم بأمور دينهم وأحكامه ، خاصة فى مثل هذه المواقف التى لا مجال فيها للتأخير .

ورسولنا ﷺ يقول : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » ولذا سوف نصحب القارئ الكريم فى رحلة تعليمية مباركة داخل فقهنا الاسلامى ، وخاصة ما يتعلق بأحكام الجنائز ، ونقف سوياً على هدى رسولنا الكريم ﷺ وهو خير الهدى وأكمله .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى زاد المعاد .

---

(١) رجعت فى هذه الأحكام الفقهية إلى (نيل الأوطار للشوكانى ـ مكتبة الدعوة الاسلامية) وإلى . (فقه السنة لسيد سابق دار الفكر ـ مكتبة المسلم) وأنوه إلى أننى أشرت إلى بعض المواضع من الكتابين ولم أشر إلى بعضها الآخر ، فليكن ذلك معلوماً للقارئ الكريم .

« وكان هديه ﷺ فى الجنائز أكمل الهدى ، مخالفاً لهدى سائر الأمم، مشتمل على الاحسان للميت ومعاملته بما ينفعه فى قبره ويوم معاده ، وعلى الاحسان إلى أهله وإقاربه وعلى اقامة عبودية الحى فيما يعامل به الميت ، وكان من هديه فى الجنائز ، إقامة العبودية للرب ـ تبارك وتعالى ـ على أكمل الأحوال والاحسان إلى الميت وتجهيزه إلى الله على أحسن أحواله وأفضلها ووقوفه ووقوف أصحابه صفوفاً يحمدون الله ويستغفرون له ويسألونه المغفرة والرحمة والتجاوز عنه ، ثم المشى بين يديه إلى أن يودعه حفرته ، ثم يقوم هو وأصحابه بين يديه على قبره سائلين له التثبيت أحوج ما كان إليه ، ثم يتعاهده بالزيارة إلى قبره والسلام عليه والدعاء له، كما يتعاهد الحى صاحبه فى دار الدنيا ، فأول ذلك تعاهده فى مرضه ، وتذكيره الآخرة وأمره بالوصية والتوبة ، وأمر من حضره بتلقينه شهادة أن لا إله إلا الله ، لتكون آخر كلامه ، ثم النهى عن عادة الأمم التى لا تؤمن بالبعث والنشور من : لطم الخدود وشق الثياب وحلق الرؤس ورفع الصوت بالندب والنياحة ، وتوابع ذلك ، وسَنَّ الخشوع للميت والبكاء الذى لا صوت معه ، وحزن القلب ، وكان يفعل ذلك ويقول : « تدمع العين ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب » وسن لأمته الحمد والاسترجاع ـ أى قول : لا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله و إنا إليه راجعون ـ والرضى عن الله » [1]

والآن .. ما الأمور الفقهية التى يلزمنا معرفتها فيما يتعلق بالجنائز ؟

* * *

---

(١) زاد المعاد ١٠ / ١٣٩

تلقين المحتضر

ورد فى أحاديث المصطفى ﷺ مايدل على أن من قال : لا إله إلا الله، قبل موته وهو موقن بها دخل الجنة ، وكانت له هذه الشهادة نجاة من النار ، فعن معاذ رضى الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من كان آخر قوله لا إله إلا الله ، دخل الجنة » [١]

وعن أبى ذر رضى الله عنه ـ قال قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد قال : لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة » [٢]

هذا .. وقد وردت عن رسول الله ﷺ أحاديث صحيحة ، تدل على أن مجرد قول العبد . لا إله إلا الله ، من موجبات الجنة من غير تقييد بحال الموت ، فبالأولى أنها توجب ذلك إذا قالها فى وقت الموت الذى لا تعقبه معصية لله .

لذا يستحب تلقين المحتضر قول : لا إله إلا الله ، لتكون آخر كلامه ، كما أمرنا بذلك الرسول ﷺ فقال : « لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله » [٣]

وفى حديث آخر يقول ﷺ : « إذا ثقلت مرضاكم فلا تملوهم قول لا إله إلا الله ، ولكن لقنوهم ، فإنه لم يختم به لمنافق قط »

قال الإمام النووى فى معنى « لقنوا موتاكم » : أى من حضره الموت ، والمراد ذكّروه : لا إله إلا الله ، لتكون آخر كلامه ، والأمر بهذا التلقين أمر ندب . وأجمع العلماء على هذا التلقين ، وكرهوا الاكثار عليه والموالاة لئلا يضجره لضيق حاله وشدة كربه ، فيكره ذلك بقلبه أو يتكلم بكلام لا يليق ، قالوا : وإذا قاله مرة لا يكرر عليه إلا أن يتكلم بعده بكلام آخر فيعاد التعريض له به ، ليكون آخر كلامه ، ويتضمن الحديث الحضور عند المحتضر لتذكيره وتأنيسه وإغماض عينيه والقيام بحقوقه

---

(١) رواه أحمد وأبو داود

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه الجماعة إلا البخارى

وهذا مجمع عليه »[1]

وبعد أن عرض الإمام الشوكانى كلام الإمام النووى السابق ، قال « ولكنه ينبغى أن ينظر ما القرينة الصارفة للأمر عن الوجوب » وكأن الرجل يميل إلى أن تلقين الميت أمر على الوجوب .

توجيه المحتضر نحو القبلة

وقد استدل الإمام الشوكانى على توجيه المحتضر نحو القبلة ، بما رواه الحاكم والبيهقى عن أبى قتادة ، أن البراء بن معرور أوصى أن يوجه للقبلة إذا احتضر ، فقال رسول الله ﷺ : « أصاب الفطرة »

وصفة توجيه الميت نحو القبلة تكون على جنبه الأيمن ووجهه نحو القبلة، وقد استدلوا على ذلك بقول الرسول ﷺ : « إذا أويت إلى مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ـ وفى آخره ـ فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة » وقد ورد : « أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ عند موتها استقبلت القبلة ثم توسدت يمينها »[2]

وقال الامام الشوكانى : « ووجه الاستدلال بأحاديث توسد اليمين عند النوم على استحباب أن يكون المحتضر عند الموت كذلك ، لأن النوم مظنة الموت ، وللإشارة بقوله ﷺ : « فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة ـ بعد قوله ـ ثم اضطجع على شقك الأيمن » فانه يظهر منه أنه ينبغى أن يكون المحتضر على تلك الهيئة »[3]

* * *

(١) نيل الأوطار . ٤ / ٢٠

(٢) رواه النسائى عن ابن مسعود ، والترمذى . وابن ماجه ، وعن حفصة عند أبى داود ، وعن سلمى أم أبى رافع عند أحمد فى المسند

(٣) نيل الأوطار : ٤ / ٢١

تغميض عينى المحتضر

عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا حضرتم موتاكم فأغمضوا البصر ، فإن البصر يتبع الروح ، وقولوا خيراً فإنه يُؤَمَّنُ على ما قال أهل الميت » (١)

وعن أم سلمة قالت : دخل رسول الله ﷺ على أبى سلمة وقد شُقَّ بصره فأغمضه ، ثم قال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر » (٢)

ومن الحديثين يُعْلَم : أنه يستحب تغميض الميت لكيلا يقبح منظره إذا تركت عيناها مفتوحتين ، وأن على من حضره أن يقول خيراً مثل الدعاء له والاستغفار ، وطلب اللطف به والتخفيف عنه ، فذلك وقت تحضر فيه الملائكة ويُؤَمِّنُونَ على ما يقوله أهل الميت ، فلا يليق إذن لأهل الميت أن يدعوا على أنفسهم بالويل والشر وما لايجوز من الدعاء ، مما ينافى أمر الرسول ﷺ فى هذه الأوقات من التسليم والرضا بقضاء الله .

القراءة عند الميت

ويسن لمن حضرته الوفاة أن يقرأ عنده (يس) فقد قال ﷺ : « يس قلب القرآن ، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرأوها على موتاكم » (٣)

قال ابن حبان : أراد به من حضرته المنية ، لا أن الميت يقرأ عليه ، ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد فى مسنده عن صفوان قال : كانت المشيخة يقولون : إذا قرئت يس عند الموت خفف عنه بها ، وأسنده صاحب مسند الفردوس إلى أبى الدرداء وأبى ذر قالا : قال رسول الله ﷺ : « ما من ميت يموت فتقرأ عنده يس إلا هون الله عليه »

---

(١) رواه أحمد وأبو داود

(٢) رواه مسلم

(٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائى ، والحاكم وابن حبان وصححاه .

تغطية الميت وجواز تقبيله

وَيُسَنُّ تسجية الميت - أى تغطيته - صيانة له من الانكشاف ، وستراً لعورته وصورته المتغيرة عن الأعين ، ويجوز تقبيل الميت ، ذلك لما ورد عن السيدة عائشة رضى الله عنها : « أن أبا بكر دخل فبصر برسول الله ﷺ وهو مسجى ببردة ، فكشف عن وجهه وأكب عليه فقبله » (١)

وعنها أيضا قالت : « قَبَّلَ رسول الله ﷺ عثمان بن مظعون وهو ميت حتى رأيت الدموع تسيل على وجهه » (٢)

وفى وصف تغطية الميت يقول أصحاب الشافعى : يُلَفُّ طرف الثوب المغطى به تحت رأسه وطرفه الآخر تحت رجليه ، لئلا ينكشف منه شئ ، وتكون تغطيته بعد نزع ثيابه التى توفى فيها لئلا يتغير بدنه بسببها ، ويؤخذ من الحديثَيْن جواز تقبيل الميت ، وجواز البكاء عليه .

المبادرة إلى تجهيز الميت

وُيسَنُّ لولى المتوفى أن يسرع بتجهيزه ودفنه ، ولا يتباطأ فى ذلك ، لما فيه من مشقة على أهله ، وخوف من تغير جيفته ، فقد ورد فى ذلك عن الحصين بن وحوح أن طلحة بن البراء مرض ، فأتاه النبى ﷺ يعوده ، فقال : « إنى لا أرى طلحة إلا قد حدث فيه الموت ، فآذنونى به وعَجِّلوا ، فإنه لا ينبغى لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرى أهله » (٣)

وعن على رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث يا على لا يؤخرن : الصلاة إذا آنت ، والجنازة إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت كفؤاً » (٤)

هذا .. ويكون التعجيل بتجهيز الميت بعد التأكد من موته بواسطة الأطباء ، أو من يعلمون ذلك خشية أن تكون حالة إغماء .

---

(١) البخارى وأحمد والنسائى

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه .

(٣) رواه أبو داود وسكت عنه ، ومعنى : آذنونى : أى أعلمونى .

(٤) رواه أحمد والترمذى ، ومعنى الأيم : من لا زوج لها .

قضاء دين الميت

قال رسول الله ﷺ : « نفس المؤمن مُعلّقة بدينه ، حتى يقضى عنه» [١]

وفى الحديث حث للورثة على سرعة قضاء الدين عن الميت ، وإخبار لهم بأن نفسه مُعَلّقة بهذا الدين وموقوفة عليه ، لا يحكم لها بنجاة ولا بهلاك ، أو هى محبوسة عن الجنة بهذا الدين .

وهذا فيمن مات وترك مالاً يقضى منه دينه ، أما من لا مال له وعليه دين مات وهو ينوى قضاءه ، أو له مال وكان ناوياً على القضاء فعاجله الموت ولم يَقْضِ عنه ورثته ، هذان يقول فيهما الرسول ﷺ : « من دان بدين فى نفسه وفاؤه ومات تجاوز الله عنه ، وأرضى غريمه بما شاء ، ومن دان بدين وليس فى نفسه وفاؤه ومات اقتص الله لغريمه منه يوم القيامة » [٢]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أخذ أموال الناس يريد آداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[٣]

وقال رسول الله ﷺ : « يُدْعَى بصاحب الدين يوم القيامة ، حتى يُوقَف بين يدى الله عز وجل فيقول : يا ابن آدم ، فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب ، إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ، ولكن أتى على يدى إما حرق ، وإما سرق ، وإما ضيعة ، فيقول الله : صدق عبدى ، وأنا أحق من قضى عنك ، فيدعو الله بشئ فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته ، فيدخل الجنة بفضل رحمته » [٤]

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وقال : حسن .
(٢) أخرجه الطبرانى عن أبى أمامة مرفوعاً .
(٣) رواه البخارى .
(٤) رواه أحمد وأبو نعيم فى الحلية والبزار والطبرانى .

وقد كان الرسول ﷺ فى بداية الأمر لا يصلى على المدين حتى يُقْضَى عنه دينه ، فلما فتح الله له البلاد وكثرت الأموال فى بيت مال المسلمين ، صلى الرسول ﷺ على المدين وقضى عنه دينه من بيت مال المسلمين من سهم الغارمين وهو أحد مصارف الزكاة الثمانية ، وهذا دليل على أن حقه لا يسقط بالموت ، وقال ﷺ : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن مات وعليه دين ، ولم يترك وفاء ، فعلينا قضاؤه ، ومن ترك مالاً فلورثته »[1]



(١) رواه البخارى .

الفصل الثانى

غســل الميت

يرى جمهور العلماء أن غسل الميت المسلم فرض كفاية ، إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، لأمر الرسول ﷺ به ومحافظة المسلمين عليه .

كيف يتم الغسل ؟

الأصل الذى بنى عليه العلماء أكثر اجتهادهم فى كيفية الغسل ما رواه الجماعة عن أم عطية ، قالت : « دخل علينا رسول الله ﷺ حين توفيت ابنته ، فقال : اغْسِلْنَهَا ثلاثاً ، أو خمساً ، أو أكثر من ذلك ــ إن رَأيْتُنَّ ــ بماء وسدر ، واجعلن فى الأخيرة كافوراً ، أو شيئاً من كافور ، فإذا فرغتن فآذننى ، فلما فرغنا آذناه ، فأعطانا حقوة ، فقال : أَشْعِرْنَهَا إياه »[1]

الواجب فى غسل الميت أن يُعَمَّمَ بدنه بالماء مرة واحدة ، ولو كان جنباً أو حائضاً ، والمستحب فى ذلك أن يوضع الميت فوق مكان مرتفع ، ويجرد من ثيابه ويوضع عليه ساتر يستر عورته ، مالم يكن صبياً ، ولا يحضر عند غسله إلا من تدعو الحاجة إلى حضوره ، وينبغى أن يكون الغاسل ثقة أمينا صالحاً ، لينشر ما يراه من الخير ، ويستر ما يظهر له من الشر .

فعند ابن ماجة : أن رسول الله ﷺ قال : « ليغسل موتاكم المأمونون » وتجب النية عليه ، لأنه هو المخاطب بالغُسْل ، ثم يبدأ فيعصر بطن الميت عصراً رفيقاً لإخراج ما عسى أن يكون بها ، ويزيل ما على بدنه من نجاسة ، على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته فإن لمس العورة حرام ، ثم يوضئه وضوء الصلاة ، لقول الرسول ﷺ : « ابدأ

---

(٢) الحقوة : الإزار ، وأشعرنها : أى اجعلنه شعاراً ، والشعار : هو الثوب الذى يلى الجسد مباشرة ، وقيل : الحكمة فى تأخير الإزار معه ﷺ إلى أن يفرغن من الغسل ، ولم يناولهن إياه أولاً : ليكون قريب عهد من جسده الطاهر ، وحتى لا يكون بين انتقاله من جسده إلى جسدها فاصل ، وهو أصل فى التبرك بآثار الصالحين ، وفيه جواز تكفين المرأة فى ثوب الرجل .

بميامنها ومواضع الوضوء منها » ولتجديد سمة المؤمنين فى ظهور أثر الغُرَّة والتحجيل ، ثم يغسله ثلاثاً بالماء والصابون ، أو الماء القراح مبتدئا باليمين، فإن رأى الزيادة على الثلاث بعدم حصول الإنقاء بها أو لشئ آخر غسله خمساً ، أو سبعاً ـ ويشترط هنا الوتر ـ

فإذا كان الميت امرأة ندب نقض شعرها وغسل وأعيد تضفيره وأرسل خلفها ، ففى حديث أم عطية : أنهن جعلن رأس ابنة النبى ﷺ ثلاثة قرون ـ أى ضفائر ـ فإذا فرغ من غسل الميت ، جفف بدنه بثوب نظيف ، لئلا تبتل أكفانه ، ووضع عليه الطيب قال رسول الله ﷺ : « إذا أجمرتم ـ أى بَخَّرتم ـ الميت فأوتروا » [1]

وجمهور العلماء على كراهة تقليم أظافر الميت وأخذ شئ من شعر شاربه ، أو إبطه أو عانته ، وَجَوَّزَ ذلك ابن حزم

واتفقوا فيما إذا خرج من بطنه حدث بعد الغُسْل وقبل التكفين ، على أنه يجب غسل ما أصابه من نجاسة ، واختلفوا فى إعادة طهارته ، فقيل : لا يجب ، وقيل : يجب الوضوء ، وقيل : يجب إعادة الغُسْل » [2]

الشهيد لا يغسل

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لا تُغَسِّلوهم فإن كل جرح ، أو كل دم يفوح مسكاً يوم القيامة » والشهيد الذى قتل فى سبيل الله بأيدى الكفار لا يُغَسَّل ولو كان جنباً ، ويُكفَّن فى ثيابه ولا يُصلَّى عليه ، وقد أمر الرسول ﷺ بدفن شهداء أحد فى دمائهم ، ولم يغسلوا ولم يصلِّ عليهم .

قال الشافعى : لعل ترك الغسل والصلاة لأن يلقوا الله بكلومهم ـ أى جروحهم ـ لما جاء أن ريح دمائهم ريح المسك ، واستغنوا بإكرام الله لهم عن الصلاة عليهم ، مع التخفيف على من بقى من المسلمين ، لما يكون

---

(١) رواه البيهقى والحاكم وابن حبان وصححاه .

(٢) انظر فقه السنة : ١ / ٤٣٢ ـ ٤٣٣

فيمن قاتل من جراحات ، وخوف عودة العدو ، رجاء طلبهم وهمهم بأهلهم، وَهمٍّ أهلهم بهم .

وقيل : الحكمة من ترك الصلاة عليهم : أن الصلاة على الميت ، والشهيد حى ، أو أن الصلاة شفاعة ، والشهداء فى غِنىً عنها ، لأنهم يشفعون لغيرهم .

غسل أحد الزوجين للآخر

اتفق العلماء على جواز غسل الزوجة لزوجها واستدلوا على ذلك بقول السيدة عائشة رضى الله عنها ـ « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما غَسَّل رسولَ الله ﷺ إلا نساؤه »[1] وأن الصديق أوصى زوجته أسماء أن تُغَسِّله ، فَغَسَّلته .

أما غسل الزوج لزوجته ، فقد اختلفوا فيه وأجازه جمهور الفقهاء ، واستدلوا على ذلك بما رواه أحمد وابن ماجه عن عائشة ، قالت : « رجع إلىَّ رسول الله ﷺ من جنازة بالبقيع ، وأنا أجد صداعاً فى رأسى ، وأقول : وارأساه ، فقال : بل أنا وارأساه ، ماضرك لو مت قبلى ، فغسلتك ، وكفنتك ، ثم صليت عليك ودفنتك » كما استدلوا على ذلك أيضا بغسل على رضى الله عنه لفاطمة .

* * *

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

الفصل الثالث

أبواب الكفن

يُكَفَّن الميت بما يستره ولو كان ثوباً واحداً فرض كفاية : « فعن خباب ابن الأرت : أن مصعب بن عمير قتل يوم أحد ، ولم يترك إلا نمرة ، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه ، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطى بها رأسه ونجعل على رجليه شيئاً من الأذخر »(١)

ويستدل من الحديث أنه إذا ضاق الكفن عن ستر جميع البدن ولم يوجد غيره ، جُعِلَ مما يلى الرأس وجعل النقص مما يلى الرِّجْلَيْن . قال النووى : فإن ضاق عن ذلك سُتِرَتْ العورة ، فإن فضل شئ جُعِلَ فوقها ، وإن ضاق عن العورة سُتِرَتْ السوأتان لأنهما أهم ، وهما الأصل فى العورة ، قال : وقد يستدل بهذا الحديث على أن الواجب فى الكفن ستر العورة فقط ولا يجب استيعاب البدن عند التمكن . وفى قوله : « ونجعل على رجليه شيئاً من الأذخر » دلالة على أنه يستحب إذا لم يوجد ساتر ألبتة لبعض البدن أو لكله أن يُغَطَّى بالأذخر فإن لم يوجد فما تيسر من نبات الأرض .

إحسان الكفن من غير مغالاة

فعن أبى قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا ولى أحدكم أخاه فليحسن كفنه »(٢)

قال النووى : والمراد باحسان الكفن نظافته ونقاؤه وكثافته وستره وتوسطه ، وكونه من جنس لباسه فى الحياة ، لا أفخر منه ولا أحقر ـ وليس المراد باحسانه السرف فيه والمغالاه .

وبناء عليه تجب الإشارة لما يحدث الآن فى مجتمعنا من مغالاة ممقوتة

---

(١) رواه الجماعة إلا ابن ماجه ، ومعنى : (نمرة) هى الشملة التى فيها خطوط بيض وسود ، أو هى بردة من الصوف يلبسها الأعرابى ، ومعنى : (الأذخر) نبات .

(٢) رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه .

فى أكفان الموتى حيث تُشْتَرى من أغلى أنواع الأقمشة تباهياً وتفاخراً ، وربما الحى أحوج إليها من الميت ، وبين يدينا مثل حى ضربه لنا الصديق أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فعن عائشة رضى الله عنها : « أن أبا بكر نظر إلى ثوب عليه كان يُمرَّض فيه ، به ردع من زعفران ، فقال : اغسلوا ثوبى هذا ، وزيدوا عليه ثوبين فكَفِّنونى فيها ، قلت : إن هذا خَلِقٌ ؟ قال : إن الحى أحق بالجديد من الميت ، إنما هى للمهلة » [1]

وفيه دلالة على عدم المغالاة فى الكفن وأن العبرة بنظافته ونقائه ، ويجوز التكفين فى الثياب المغسولة وإيثار الحى بالجديد ، وأنه يستحب تكفين الميت فى ثلاثة أكفان ، ومعنى قول أبى بكر : « إنما هى للمهلة » أى للصديد الذى يخرج من الميت فى قبره .

كما يستحب فى الكفن أن يكون أبيض لما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « البسوا من ثيابكم البيض فإنها خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم» [2]

قال النووى عن التكفين فى الأبيض : هو مجمع عليه

صفة الكفن للرجل والمرأة

إذا عُلِمَ أن الكفن لا يجب فيه أكثر من ثوب واحد يستر جميع البدن ، فإن الأفضل فيه ثلاثة أثواب بيض للرجل ، لما ورد عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت :

« كُفِّن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سحولية جدد ، ليس فيها قميص ولا عمامة » [3] قال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل

---

(١) مختصر من البخارى ، انظر : نيل الأوطار : ٤ / ٣٥ ، ومعنى : (ردع) أى لطخ لم يعمه كله ، وخلق : أى قديم .

(٢) رواه الخمسة إلا النسائى وصححه الترمذى عن ابن عباس .

(٣) رواه مسلم ، ومعنى : (بيض سحولية) دلالة على استحباب اللون الأبيض فى الكفن ، وسحولية نسبة إلى سحول وهى قرية باليمن اشتهرت بهذه الثياب البيض النقية والتى لا تصنع إلا من القطن .

العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم ، قال : وقال سفيان الثورى : يُكفَّن الرجل فى ثلاثة أثواب إن شئت فى قميص ولفافتين ، وإن شئت فى ثلاث لفائف ، ويجزئ ثوب واحد إن لم يجدوا ثوبين ، والثوبان يجزيان ، والثلاثة لمن وجد أحب إليه .

وتُكَفَّن المرأة فى خمسة أثواب لما ورد عن أم عطية رضى الله عنها أن النبى ﷺ « ناولها إزاراً ودرعاً وخماراً وثوبين » قال ابن المنذر : أكثر من نحفظ عنه من أهل العلم يرى أن تُكَفَّن المرأة فى خمس أثواب .

الكفن من الحرير

الكفن من الحرير نوع من الإسراف وإضاعة المال والمغالاة التى نهى عنها الدين ، فالحرير حرام على الرجال لقوله ﷺ عن الذهب والحرير : «إنهما حرام على ذكور أمتى حل لإناثها »

وقد كره كثير من أهل العلم أن تكفن المرأة فى الحرير لما فيه من الاسراف والتبذير ، وفَرَّقوا بين أن يكون الحرير زينة لها فى الدنيا ، وكونه كفنا لها بعد الموت ، فقال الإمام أحمد : لا يعجبنى أن تكفن المرأة فى شئ من الحرير ، وكره ذلك الحسن، وابن المبارك واسحق ، وقال ابن المنذر : ولا أحفظ عن غيرهم خلافهم .

تطييب بدن الميت وكفنه

ويستحب تطييب بدن الميت وكفنه برائحة طيبة ، ذلك لقول الرسول ﷺ « إذا أجمرتم الميت فأجمروه ثلاثاً » [1]

---

(١) رواه أحمد عن جابر ، ومعنى : (أجمرتم) أى بخرتم .

تكفين المحرم

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع عن راحلته فوقصته ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه فى ثوبيه ، ولا تحنطوه ، ولا تُخمِّروا رأسه ، فإن الله تعالى يبعثه يوم القيامة ملبياً » (١)

وقد استدل العلماء بهذا الحديث على أن المحرم إذا مات غُسِّل كما يُغَسَّل غيره ممن ليس محرماً ، ولا يوضع عليه الطيب ولا على كفنه ، ويُكَفَّن فى ثوبى الإحرام وهما إزاره ورداءه ولا تُغَطَّى رأسه ذلك لبقاء حكم الإحرام بعد الموت وأنه كما قال ﷺ : « يبعث ملبياً » وفى الحديث أيضا دلالة على أن الوتر في الكفن ليس شرطاً .

تكفين الشهيد

يجب تكفين الشهيد فى ملابسه التى استشهد فيها ، ويُنزَعُ عنه لباسُ الحرب وآلته من الحديد أو الجلود أو غيرها ، وقد علم فى باب الغسل أن الشهيد لا يُغسَّل ، وقد ورد عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال : «أمر رسول الله ﷺ يوم أحد بالشهداء أن تنزع عنهم الحديد والجلود ، وقال : ادفنوهم بدمائهم وثيابهم » (٢)

* * *

---

(١) رواه الجماعة ، ومعنى : (وقصته) أى دقت عنقه ، (ثوبيه) إزاره ورداءه ، (الحنوط) الطيب.

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة .

الفصل الرابع
صلاة الجنازة

* **حكمها** : صلاة الجنازة فرض كفاية ـ أى إذا فعله البعض سقط عن الباقين .

* **فضلها** : للصلاة على الجنازة فضل كبير وكذا لحملها والسير معها حتى تدفن ، فقد روى مسلم عن خباب رضى الله عنه قال : ياعبد الله بن عمر ، ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم تبعها حتى تدفن ، كان له قيراطان من أجر ، كل قيراط مثل أحد . ومن صلى عليها ثم رجع، كان له مثل أحد » فأرسل ابن عمر رضى الله عنهما خباباً إلى عائشة يسألها عن قول أبى هريرة ، ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت . فقال: قالت عائشة : « صدق أبو هريرة » فقال ابن عمر رضى الله عنهما : «لقد فرطنا فى قراريط كثيرة »

شروطها : صلاة الجنازة لها نفس شروط الصلاة العادية من الطهارة ، وستر العورة ، واستقبال القبلة ، ولا يشترط فيها الوقت فتصلى فى كل الأوقات متى حضرت الجنازة ، وقال بعضهم : يكره الصلاة على الجنازة وقت الطلوع والاستواء والغروب ، إلا إذا خيف على الميت التغير .

أركانها : ١ ـ النية ٢ ـ القيام للقادر عليه . ٣ ـ التكبيرات الأربع .

٤ ـ التسليم وهو متفق على فرضيته بين الفقهاء ما عدا أبا حنيفة القائل بأن التسليمتين يميناً وشمالاً واجبتان وليستا ركنين واستدلوا على فرضية التسليم أن صلاة الجنازة صلاة ولا بد من التسليم فيها للتحلل منها ، وأقل السلام : السلام عليكم ، السلام عليكم .

كيفية صلاة الجنازة : يقف المصلى بعد أن يستكمل شروط الصلاة من الطهارة وستر العورة واستقبال القبلة ، ثم ينوى الصلاة على

من حضر من أموات المسلمين ، ويكون الميت بين القبلة والإمام بحيث يقف الامام عند رأس الميت إذا كان ذكراً وعند وسطه إذا كان أنثى ، ثم يرفع يديه فيكبر تكبيرة الإحرام ويضع يده اليمنى على يده اليسرى ويشرع فى قراءة الفاتحة ، ثم يكبر ثانية دون رفع يديه ويصلى على النبى ﷺ ثم يكبر ثالثة دون رفع يديه ويدعو للميت ، ثم يكبر رابعة دون رفع يديه ويدعو لنفسه وللميت وللمسلمين ، ثم يسلم .

وعن أبى أمامة بن سهل أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ أن السنة فى صلاة الجنازة : أن يكبر الإمام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى ، سراً فى نفسه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يخلص الدعاء للجنازة فى التكبيرات الثلاث ولا يقرأ فيهن بعد التكبيرة الأولى ، ويسلم تسليماً خفيفاً حتى ينصرف ، فالسنة أن يفعل ويفعل الناس بمثل ما فعل إمامهم .[1]

أفضل الصيغ فى الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ :

تؤدى الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بأى صيغة تأتى على لسان المصلى والأفضل اتباع المأثور وهى صيغة الصلاة والسلام على رسول الله فى التشهد والتى تقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد .

أفضل الصيغ فى الدعاء للميت :

والدعاء للميت يكون بأي صيغة يراها المصلى ويستحب الدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ ، ومنه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا صلى على جنازة قال : « اللهم اغفر لحينا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا ، اللهم من أحييته منا فأحيه على الاسلام ، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان ـ وزاد ابن ماجه ـ اللهم لا تحرمنا أجره ولا

(١) رواه الشافعى فى مسنده ، وابن عساكر فى تاريخه ، كنز العمال : ١٥ / ٧١٨ .

تضلنا بعده »[1]

عن عوف بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ صلى على جنازة يقول : « اللهم اغفر له وارحمه ، واعف عنه وعافه ، وأكرم نزله ، ووسِّع مُدْخَله ، و اغسله بماء وثلج وبرد ، ونَقِّه من الخطايا كما يُنقَّى الثوب الأبيض من الدنس ، وأبدله داراً خيراً من داره ، وأهلاً خيراً من أهله ، وزوجاً خيراً من زوجه ، وقه فتنة القبر ، وعذاب النار » قال عوف : فتمنيت أن لو كنت أنا الميت لدعاء الرسول ﷺ لذلك الميت[2]

الصلاة على السقط

إذا نزل السقط قبل أربعة أشهر فإنه لا يُغسَّل ، ولا يُصلَّى عليه ، ويُلَفُّ فى خرقة ويدفن ، وليس فى ذلك خلاف بين جمهور الفقهاء ، وتعليل ذلك عندهم أنه ليس بميت إذ لم تنفخ فيه الروح .

فإن نزل السقط بعد أربعة أشهر واستهل ـ أى صاح أو عطس أو تحرك حركة يُعلم منها حياته ـ فإنه يُغسّل ويُصلَّى عليه باتفاق العلماء ، لأنه نسمة ونفخ فيه الروح ، أما إذا نزل السقط بعد أربعة أشهر ولم يستهل ـ أى لم يظهر عليه ما يدل على حياته بعد نزوله ـ ففى هذه الحالة لا يُصلّى عليه ، لما رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه والبيهقى عن جابر أن النبى ﷺ ـ قال : « إذا استهل السقط صُلى عليه وورث » ففى الحديث اشتراط الاستهلال فى الصلاة عليه .

الصلاة على الشهيد

وهو الذى قتل فى سبيل الله بأيدى الكفار ، وقد ورد عن الصلاة عليه كلام كثير اختلف فيه سلفنا الصالح رضوان الله عليهم ، ذلك لأن هناك أحاديث صحيحة تفيد عدم الصلاة عليه ، وأحاديث أخرى تفيد الصلاة عليه ، والراجح من كلامهم أن الشهيد لا يصلى عليه ، وقد علمنا أنه لا يُغَسَّل .

---

(١) رواه أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجه .

(٢) رواه مسلم والنسائى .

الصلاة على المحدود والغال وقاتل نفسه وسائر العصاة

المحدود : هو الذى قُتِل فى حد من حدود الله ، وهذا يغسل ويصلى عليه ، لما رواه البخارى عن جابر : أن رجلاً من أسلم جاء إلى النبى ﷺ فاعترف بالزنا ، فأعرض عنه حتى شهد على نفسه أربع مرات ، فقال : «أبك جنون ؟» قال : لا ، قال : « أحصنت ؟ » [1] قال : نعم ، فأُمِرَ به فَرُجِمَ بالمصلَّى ، فلما أزلقته الحجارة فرَّ ، فأُدْرِك فَرجِم حتى مات ، فقال له ـ أى عنه النبى ﷺ خيراً وصلى عليه ، وقال أحمد : ما نعلم أن النبى ﷺ ترك الصلاة على أحد إلا على الغال وقاتل نفسه .

والغال : هو السارق من الغنائم قبل أن تُقسَّم

ومجمل كلام جمهور العلماء يفيد أنه يصلى على الغال وقاتل نفسه وعلى كل من ارتكب معصية لا يصل بها إلى حد الكفر بالله ، طالما مات مسلماً يشهد « أن لا إله إلا الله » قالوا : فمن منع الصلاة على مسلم ، فقد قال قولاً عظيماً ، وإن الفاسق لأحوج إلى الدعاء من الفاضل المرحوم ، وصح عن الحسن أنه قال : يُصلَّى على من قال : « لا إله إلا الله » وصلى إلى القبلة ، إنما هى شفاعة .

وعلل العلماء ترك الرسول ﷺ الصلاة على الغال وقاتل نفسه ، بأن ذلك للزجر عن هذا الفعل ، كما امتنع عن الصلاة على المدين وأمرهم بالصلاة عليه .

الصلاة على الغائب

تجوز الصلاة على الغائب الذى مات فى بلد آخر قريبة أم بعيدة بنفس صلاة الجنازة العادية ، لما رواه الجماعة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ نعى للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه ، وخرج بهم إلى المصلى ، فَصفَّ أصحابه ، وكبر أربع تكبيرات قال ابن حزم . وهذا

---

(١) معنى : (أحصنت) أى : تزوجت ، (بالمصلى) أى : مكان صلاة العيد

إجماع منهم لا يجوز تعديه ، وخالف ذلك أبو حنيفة ومالك ، وليس لهما حجة يمكن أن يُعْتَدَّ بها .

الصلاة على القبر

ويجوز أن يُصَلَّى على الميت بعد الدفن فى أى وقت ، حتى لو صلى عليه قبل دفنه ، لما ورد عن زيد بن ثابت قال : « خرجنا مع النبى ﷺ فلما وردنا البقيع إذا هو بقبر جديد ، فسأل عنه ؟ فقيل : فلانة ، فعرفها ، فقال : ألا آذنتمونى بها ؟ قالوا : يارسول الله ، كنت قائلاً ، صائماً ، فكرهنا أن نؤذيك . فقال : لا تفعلوا ، لا يموتن فيكم ميت ما كنت بين أظهركم إلا آذنتمونى به فإن صلاتى عليه رحمة ، ثم أتى القبر فصفنا خلفه وكبر عليه أربعاً »(1)

وهذا لا يعارض نهيه ﷺ عن الصلاة إلى القبور ، فإن الصلاة المنهى عنها إلى القبر غير هذه الصلاة ، فهذه صلاة الجنازة على الميت وهى لا تختص بمكان ، بل فعلها خارج المسجد أفضل من فعلها فيه ، فالصلاة عليه على قبره من جنس الصلاة عليه على نعشه ، فهو المقصود بالصلاة فى الموضعين ، ولا فرق بين كونه على النعش وعلى الأرض ، وبين كونه فى بطنها ، بخلاف سائر الصلوات فإنها لم تشرع فى القبور ولا إليها ، لأنها ذريعة إلى اتخاذها مساجد ، وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك فقال : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد »

هل يقضى الفائت من صلاة الجنازة ؟

من فاتته بعض تكبيرات الصلاة على الجنازة يستحب له أن يقضيها متتابعة ، فإن لم يقض فلا بأس ، وقال بعضهم : لا يقضى ما فات من تكبير الجنازة ، ويسلم مع الإمام وليس فى الصحابة مخالف لذلك .

وقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « يارسول

---

(1) رواه أحمد والنسائى والبيهقى والحاكم وابن حبان وصححاه ، ومعنى : (قائلا) أى : مستريحاً فى وقت القيلولة ، وهو وقت الظهيرة .

الله ، إنى أصلى على الجنازة ، ويخفى علىَّ بعض التكبير ، قال : ما سمعت فكبرى، وما فاتك فلا قضاء عليك » وهذا صريح ، ولأنها تكبيرات متواليات ، فلا يجب ما فاته منها كتكبيرات العيدين .

حمل الجنازة والسير بها

علمنا فضل الجنازة وما يناله الإنسان من جزيل الثواب إذا شيع جنازة وسار معها حتى تدفن ، ويستحب لحامل الجنازة أن يحمل النعش من جميع جوانبه بأن يدور عليه كله ولا يقتصر على الحمل من مكان واحد ، هكذا أمرنا الرسول ﷺ فقال : « من اتبع جنازة فليحمل بجوانب السرير ـ النعش ـ كلها ، فإنه من السنة ، ثم إن شاء فليتطوع ، وإن شاء فليدع »[1]

والسنة فى السير بالجنازة أن يكون السير بها متوسطاً ، بحيث لا تسرع حتى يخشى على الميت التلف وعلى الناس المشقة ، ولا يتباطأ بها تباطئاً يوحى بالتباهى والاختيال .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أسرعوا بالجنازة ، فإن كانت صالحة قربتموها إلى الخير ، و إن كانت غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم »[2]

وعن أبى موسى قال : مرت برسول الله ﷺ جنازة تمخض مخض الزق ، فقال : « عليكم القصد »[3]

والمراد بالإسراع عند جمهور العلماء : ما فوق سجية المشى المعتاد ، وقال فى الفتح : والحاصل أنه يستحب الإسراع بها لكن بحيث لا ينتهى إلى شدة يخاف معها حدوث مفسدة الميت أو مشقة على الحامل أو

---

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) رواه الجماعة .

(٣) رواه أحمد ، ومعنى : (الزق) أى السقاء وهو القربة ، و (تمخض) أى : تتحرك ، والمقصود : أنهم أسرعوا فى سيرهم ، حتى اهتزت الخشبة بالميت مثل اهتزاز قربة الماء .

المشيع لئلا ينافى المقصود من النظافة[1] ، وإدخال المشقة على المسلم ، وقال القرطبى : مقصود الحديث أن لا يتباطأ بالميت عن الدفن لأن التباطؤ يؤدى إلى التباهى والاختيال .

آداب تشييع الجنازة

وينبغى لمشيع الجنازة أن يراعى آدابها ويلتزم بسنة الرسول ﷺ فى ذلك ، ومن هذه الآداب :

المشى مع الجنازة :

ويجوز للماشى أن يمشى أمام الجنازة أو خلفها أو عن يمينها أو عن شمالها ، كله جائز ، والركوب مع الجنازة لايكون إلا لعذر ، والراكب يمشى خلفها ، وهذا واضح فى قول الرسول ﷺ : « الراكب خلف الجنازة ، والماشى أمامها قريباً منها ، عن يمينها ، أو عن يسارها » [2]

وإذا كان جمهور الفقهاء قد كره الركوب إلا لعذر فإنهم أجازوه بعد الانصراف من الجنازة بدون كراهة ، لما ورد عن ثوبان أن رسول الله ﷺ أُتِىَ بدابة وهو مع جنازة فأبى أن يركبها ، فلما انصرف أُتِىَ بدابة فركب ، فقيل له ، فقال : « إن الملائكة كانت تمشى ، فلم أكن لأركب وهم يمشون ، فلما ذهبوا ركبت » [3]

عدم الجلوس حتى توضع الجنازة :

ومن الآداب التى يجب أن يراعيها المشيع : ألا يجلس قبل وضع الجنازة عن أكتاف الحاملين ، لما ورد عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها ، فمن اتبعها فلا يجلس حتى

---

(١) والذى ينافى النظافة هنا هو السرعة التى تتسبب فى اهتزاز الميت فتنفك عنه أربطة الكفن أو يخرج منه ريح أو خلافه مما فيه مفسدة للميت وتغيير لحالته ، لذا كان الأمر النبوى بالقصد فى السير بالجنازة ، والله أعلم .

(٢) رواه أحمد وأبو داود .

(٣) رواه أبو داود .

توضع »[1]

وهذا مذهب أكثر الصحابة والتابعين والأحناف والحنابلة والأوزاعى واسحق ، وقالت الشافعية : لا يكره الجلوس لمشيعها قبل وضعها على الأرض .

الوقوف للجنازة حتى تمر :

ويستحب القيام للجنازة حتى تمر تعظيماً للذى يقبض النفوس ويتوفى الأرواح ، ذلك لما ورد عن ابن عمر عن عامر بن ربيعة عن النبى ﷺ قال: « إذا رأيتم الجنازة فقوموا لها حتى تخلفكم أو توضع »[2]

وروى الإمام أحمد : « وكان ابن عمر إذا رأى جنازة قام حتى تجاوزه» ولأحمد أيضاً عن ابن عمر « أنه ربما تقدم الجنازة فقعد حتى إذا رآها قد أشرفت قام حتى توضع » وفى القيام للجنازة خلاف بين الفقهاء ، الأرجح فيه استحباب القيام ، فمن جلس فهو فى سعة ومن قام فله أجر .

عدم رفع الصوت مع الجنازة :

ويُكره لمشيع الجنازة رفع الصوت بذكر أو قراءة أو غيره ، لأن ذلك مخالف لما كان عليه الصحابة والتابعون . قال النووى : واعلم أن الصواب ما كان عليه السلف من السكوت حال السير مع الجنازة ، فلا يرفع صوته بقراءة ، ولا ذكر ولا غيرهما ، لانه أسكن لخاطره وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة ، وهو المطلوب فى هذا الحال .

وقال فى (الفتح) : يكره للماشى أمام الجنازة رفع الصوت بالذكر ، فإن أراد أن يذكر الله فليذكره فى نفسه ، وهذا ـ أى رفع الصوت ـ أمر محدث لم يكن فى عهد النبى ﷺ ولا الصحابة ولا التابعين ولا تابعيهم ، فهو مما يلزم منعه .

---

(١) رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

(٢) رواه الجماعة .

لا تتبع الجنازة بنار :

يُكره أن تتبع الجنازة بنار ، لأن ذلك من أفعال الجاهلية ، وقد ورد في وصية عائشة ، وعبادة بن الصامت ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد الخدري ، وأسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهم - أنهم أوصوا بألا تتبع جنازتهم بنار .

وروى ابن ماجه : أن أبا موسى الأشعري حين حضره الموت قال : لا تتبعوني بمجمر [1] ، قالوا : أو سمعت في ذلك شيئاً ؟ قال : نعم من رسول الله ﷺ .

أما إذا كان الدفن ليلاً واحتاجوا إلى ضوء فلا بأس به .

* * *

(١) مجمر : أي نار .

الفصل الخامس

أبـواب الـدفـن

دفن الميت ومواراة بدنه التراب فرض كفاية ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءً وأَمْوَاتاً ﴾ ودفن الميت المسلم يجب أن تراعى فيه سنة الرسول ﷺ في دفن الموتى ، ونذكر منها مايلى :

استحباب إعماق القبر : القصد من الدفن أن يُوارى الميت فى حفرة تحجب رائحته ، وتمنع السباع والطيور عنه ، وعلى أى وجهه تحقق هذا المقصود تأدى به الغرض ، وتم به الواجب ، إلا أنه ينبغى تعميق القبر قدر قامة ، لما روى عن هشام بن عامر ، قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ يوم أحد : فقلنا : يارسول الله ، الحفر علينا لكل إنسان شديد ، فقال: « احفروا وأعمقوا ، وأحسنوا ، وادفنوا الاثنين والثلاثة فى قبر واحد، فقالوا : فمن نُقَدِّم يارسول الله ؟ قال : قَدِّموا أكثرهم قرآنا » [1]

وفى الحديث دليل على إعماق القبر وعلى دفن أكثر من واحد فى قبر إذا دعت الحاجة .

تفضيل اللحد على الشق :

اللحد هو الشق فى جانب القبر جهة القبلة ، يُنصَبُ عليه اللَّبِنُ ـ الطوب النئ ـ فيكون كالبيت المسقف . والشق حفرة فى وسط القبر تبنى جوانبها باللبن يوضع فيه الميت ويسقف عليه بشئ ، وكلاهما جائز ، إلا أن اللحد أَوْلَى لقول الرسول ﷺ « اللحد لنا ، والشق لغيرنا » [2]

صفة إدخال الميت القبر :

من السنة إدخال الميت قبره من مؤخرة القبر إذا لم يكن هناك مانع ، فإن تعسر ذلك فيدخل من حيث أمكن ، أجاز ذلك ابن حزم .

---

(١) رواه النسائى والترمذى وصححه .

(٢) رواه أحمد وأصحاب السنن ، وحسنه الترمذى عن ابن عباس .

يستحب للميت :

* أن يوضع في قبره على جانبه الأيمن ووجهه نحو القبلة ، ويوضع وراء ظهره بعض الطوب اللَّبِن كيلا يستلقى على قفاه

* أن يقول واضعه : « بسم الله وعلى ملة رسول الله »

* أن تُحلَّ أربطة الكفن ويُوسَّد رأسُ الميت بطوبة من اللبن أو حجر أو تراب ، ويرفع الكفن عن خده الأيمن ويفضى به إلى التراب .

* يستحب أيضا أن يُمَدَّ ثوب على المرأة عند إدخالها القبر دون الرجل واستحب الشافعية ذلك للرجل والمرأة .

* يستحب لمن شهد الدفن أن يحثو ثلاث حثيات من التراب على القبر من جهة رأسه ففي حديث الرسول ﷺ : « من حثى على مسلم احتساباً كتب له بكل ثراة حسنة »[1]

* يستحب الدعاء للميت والاستغفار له بعد الفراغ من دفنه وأن يسأل له التثبيت لأنه يُسْأل في هذا الوقت ، فعن عثمان رضى الله عنه قال : «كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه ، فقال : استغفروا لأخيكم ، وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسْأل »[2] واستحب ابن عمر قراءة أول سورة البقرة وخاتمتها على القبر بعد الدفن .

* يستحب تلقين الميت بعد دفنه وانصراف الناس عنه ، لما روى عن جماعة من التابعين : إذا سُوِّى على الميت قبره ، وانصرف الناس عنه ، كانوا يستحبون أن يقال للميت عند قبره : يافلان ، قل : لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله (ثلاث مرات) يافلان ، قل : ربى الله ، ودينى الاسلام ، ونبيى محمد ﷺ ثم ينصرف

السنة فى بناء المقابر

السنة التى يجب علينا اتباعها فى بناء المقابر والواردة عن الرسول

---

(١) انظر : نيل الأوطار : ٤ / ٨١ .

(٢) رواه أبو داود والحاكم وصححه ، والبزار .

ﷺ أن يرتفع القبر مقدار شبر من الأرض ، بما يدل على أنه قبر فلا يداس ولا يُجلَسُ عليه ، وقد وردت بذلك أحاديث يذكر منها :

عن القاسم قال : « دخلت على عائشة ، فقلت : ياأمه بالله اكشفى لى عن قبر النبى ﷺ وصاحبيه ، فكشفت له عن ثلاثة قبور ، لا مشرفة ، ولا لاطئة ، مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء » [1]

وعن أبى الهياج الأسدى ، عن على قال : « أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ﷺ لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » [2]

وفى ذلك دليل على أن السنة أن القبر لا يُرفع رفعاً كثيراً من غير فرق بين من كان فاضلا ومن كان غير فاضل .

قال الشافعى : وأحب ألا يزاد فى القبر تراب من غيره - أى لا يوضع عليه تراب أكثر من الذى خرج منه - وإنما أحب أن يشخص على وجه الارض شبراً أو نحوه ، وأحب أن لا يبنى ، ولا يُجَصَّص فإن ذلك يشبه الزينة والخيلاء ، وليس الموت موضع واحد منهما ، ولم أر قبور المهاجرين والأنصار مجصَّصة . وقد رأيت من الولاة من يهدم ما بنى فى المقابر ، ولم أر الفقهاء يعيبون عليه ذلك .

وقال الشوكانى :

« والظاهر أن رفع القبور زيادة عن القدر المأذون فيه محرم ، وقد صرح بذلك أصحاب أحمد ، وجماعة من أصحاب الشافعى ومالك ، والقول بأنه غير محظور لوقوعه من السلف والخلف بلا نكير ، كما قال الإمام يحيى والمهدى فى الغيث ، لا يصح ، لأن غاية ما فيه أنهم سكتوا عن ذلك والسكوت لا يكون دليلاً إذا كان فى الأمور الظنية ، وتحريم رفع القبور ظنى .

ومن رفع القبور الداخل تحت الحديث دخولاً أولياً : القبب والمشاهد

---

(١) رواه أبو داود ، ومعنى : (مشرفة) أى : عالية ، (لاطئة) أى : لازقة بالأرض

(٢) رواه الجماعة إلا البخارى وابن ماجه .

المعمورة على القبور ، وأيضا هو من اتخاذ القبور مساجد ، وقد لعن النبى ﷺ فاعل ذلك .. وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الاسلام : منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وَعظُمَ ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج ، وملجأ لنجاح المطالب ، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم ، وشدوا إليها الرحال ، وتمسحوا بها ، واستغاثوا ، وبالجملة أنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه (فإنا لله وإنا إليه راجعون)

ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع ، لا تجد من يغضب لله ، ويغار حمية للدين الحنيف ، لا عالماً ولا متعلماً ، ولا أميراً ولا وزيراً ، ولا ملكاً ، وقد توارد إلينا من الأخبار مالا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم ، إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه ، حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك ومعتقدك الولى الفلانى ، تلعثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق .

وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال أنه تعالى ثانى اثنين أو ثالث ثلاثة ، فيا علماء الدين ، ويا ملوك المسلمين أى رزء للاسلام أشد من الكفر ؟! أو أى بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ؟! وأى مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ؟! أو أى منكر يجب انكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجباً ؟! »[1]

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْت حياً ... وَلَكِنْ لاَ حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِى

وَلَوْ نَاراً نَفخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ ... وَلَكِنْ أَنْت تنفخُ فِى رَمَادِ

هذا .. وفيما ذكره الشوكانى رحمه الله كفاية فى الزجر عن هذه المعاصى ، وندعو الله عز وجل أن يلهمنا الصواب ، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه ، اللهم آمين .. وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(١) انظر : نيل الأوطار : ٤ / ٨٣ ـ ٨٤ .

المراجع

١ ـ تفسير ابن كثير ـ طبعة مكتبة التراث الاسلامى ـ حلب .

٢ ـ فتح البارى ـ ط دار الريان للتراث .

٣ ـ إحياء علوم الدين ـ ط المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢هـ ١٩٣٣م .

٤ ـ زاد المعاد لابن القيم ـ ط المطبعة المصرية ومكتبتها .

٥ ـ نيل الأوطار للشوكانى ـ ط مكتبة الدعوة الاسلامية (شباب الأزهر)

٦ ـ فقه السنة ـ السيد سابق ـ ط دار الفكر ـ مكتبة المسلم .

٧ ـ عقيدة المؤمن ـ أبو بكر جابر الجزائرى .

٨ ـ معارج القبول ـ الشيخ حافظ بن أحمد حكمى ـ ط دار الفتح الاسلامى ـ اسكندرية .

٩ ـ علامات يوم القيامة ـ ابن كثير ـ ط مكتبة القرآن ـ تحقيق وتعليق عبد اللطيف عاشور .

١٠ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ فؤاد عبد الباقى ـ ط الريان للتراث .

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

- - -

رقم الإيداع : ٥٤٧٧ / ١٩٩٠

الترقيم الدولى : . I . S . B . N

977 - 262 - 005 - 7

دار البشير ـ القاهرة
للطباعة والنشر والتوزيع

١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص . ب ١٦٩ المعادى . ت : ٣١٨٧٣٦٨

مطابع
دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

هذا الكتاب

★ الموت هو حقيقة الحقائق فى هذه الدنيا ، فما من يوم يمر إلا ويموت واحد من بنى البشر ، تاركاً آماله وطموحاته وأحبابه الذين تربوا بين يديه ، وأصدقاءه الذين كانوا جلساءه فى هذه الدنيا .

★ فما من يوم يمر إلا ويُشيِّع الناس واحداً منهم إلى قبر موحش مظلم ليكون فيه غريباً فريداً وحيداً لا أنيس له ولا جليس إلا عمله الصالح .

★ قد جعل الله الموت واعظاً للناس إن تفكروا وتدبروا ، فمن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، تكفيه رهبته وهلعه وخوفه من المصير الذى ينتظره كلما مضى يوم من عمره الذى لا يعرفه ولم يطلع عليه أحد .

★ فهل هناك أشد من هذا موعظة لكى يسلك الإنسان الطريق المستقيم فى الحياة عسى أن يكون فى الآخرة من الفائزين الذين يُزحزحُون عن النار ويُدخَلُون الجنة .

★ وهذا الكتاب لا يكتفى بالحديث عن الموت وأحكام الجنائز ودفن الميت التى قد يغفل عنها الناس أو يتبعون فيها هَدْياً غير هَدْى محمد ﷺ ... بل إنه يتحدث أيضاً عن يوم الدينونة يوم الحساب والعرض على الله وعلامات إتيان هذا اليوم التى تمثل إنذاراً وتحذيراً للناس أن يوم الحساب قد اقترب ، ولم يعد أمام الناس إلا الأخذ بكتاب الله بقوة وحزم أكيدين عسى أن ينجيهم الله من عذاب يوم شديد .

دار البشير



